أسباب التعدد في التحليل النحوي

د.محمود حسن الجاسم

جامعة حلب - كلية الآداب - قسم اللغة العربية

يلحظ المرء أن تعدد الأوجه في تحليل أحد العناصر التركيبية أمرٌ شائعٌ ومألوفٌ في درسنا النحوي، ومن ثم ألفنا أساليب الجواز عند النحاة، إذ نرى أحياناً أن أحدهم قد يجيز أكثر من وجه في عنصر ما. كما ألفنا الخلاف بينهم في أثناء التحليل، فمنهم من يرى وجهاً فيما يتناول، ثم يأتي آخر رافضاً ما سبق ومضيفاً وجهاً جديداً، وربما وقف أحدهم عند شاهدٍ ما قيلت فيه أوجه كثيرة تمثّلها جهات متنوعة، فيحاكم الأوجه ليضعف بعضها أو يرفضه ويرجّح أو يجيز بعضها الآخر، وهكذا شاع الجواز في تحليلهم وكثر الأخذ والرد بالترجيح والتضعيف والرفض في حوارهم.

ونحاول في هذا البحث أن نلقي الضوء على الأسباب التي تقود إلى تعـدد الأوجه في تحليل أحد العناصر التركيبية، ملتزمين بمنهج وصـفي يبتعـد عـن الأحكام المعيارية التي تبين التفاوت بين الأوجه، من حيث القوة والضعف.

* * *

نظر النّحاة في طبيعة النظام التركيبي والعناصر التي يتشكل منها من حيث الأسس التي تحكمها والمعاني التي تتمثل بها، وبعد أن لاحظوا أن هناك أنماطـاً تركيبية معينة تتحكم في نظام اللغة التركيبي جرّدوا منها هـيكلاً نظريًّـا، يُعـدُّ قواعد نحوية يقاس عليها التوليد والتحليل، وتمثّل النظام المطرد في اللغة، بيد أن طبيعة اللغة الإنسانية التي لا تخضع للأحكام المطلقة واجهتم بأنماط أخرى تقـلّ اطّراداً، وتعكس شواهد بمستويات مختلفة شعرية ونثرية، فـانبرى النّحـاة لهـا بالتحليل وانقسموا فريقين، الأول يوجّه في ضوء المطّرد، والآخر يجعل من هذه التي تقل عن المطّرد قواعد ينقاس عليها، ومن ثَمَّ كثر التعدد في تحليل مثل هذه

الشواهد التي خرجت على الأصول المطردة، وتشعبت المواقف منه من حيث التضعيف والجواز والرفض.

وإذا كانت اللغة تعكس الطبيعة الإنسانية بأنها لا تخضع للأحكام خضوعاً مطلقاً فإنها تعكس تلك الطبيعة بمظهر آخر يمثل الغموض المحير الذي لا يخضع لتفسير واحد، فقد لاحظ النحاة أن هناك شواهد لم تخرج على قاعدة ولم يؤثر فيها أمرٌ سياقي، وتبقى فيها بعض القضايا المحيرة في الفهم التي تقبل غير وجه، مما جعل طبيعة اللغة الإنسانية سبباً في تعدد أوجه التحليل أحياناً.

ولا شك أن المفسر عندما يتناول نصاً ما ينقاد إلى فهم معين، وهذا الفهم يعد حصيلةً لتفاعل أمرين، المعطيات السياقيّة التي يتشكل منها المعنى، وطبيعة المتلقي من حيث التكوين الفطري والمكتسب، إذ يتعدد المعنى في نظر المفسر الواحد بسبب من المعطيات السياقية التي يرتكز عليها في فهم النص، ويقود هذا إلى تعدد في التحليل النّحوي عنده، وقد يختلف فهم المعنى باختلاف الناس، مما يجعلنا نرى التفاوت النسبي في عملية التلقي وتحديد المعنى أمراً شائعاً، وهو ما يجعل التحليل النّحوي أحياناً يختلف الاختلاف نفسه، كما يظهر في تفاسير القرآن الكريم وغيرها.

ويبدو أن هذه القضايا المشار إليها قابلة للاجتهاد مع مرور الأيام، فإذا كانت الشواهد التي تمثل الفصحى وقد خرجت على المطرد ثابتة فإن الأشخاص الذين ينظرون فيها يتزايدون بمرور الزمن، وكذلك الأمر مع ما تمثله طبيعة اللغة، أو النصوص المهمة الثابتة، كالقرآن الكريم، ومن ثم كثر التعدد بالتوليد والتفريع، وكثر الأخذ والرد بالجواز والترجيح والتضعيف والرفض.

ومما تقدم يمكن النظر إلى الأسباب التي كانت وراء ظاهرة التعدد من أربعة جوانب: الخروج على القاعدة، وطبيعة اللغة، والمعنى، والاجتهاد.

أولاً- الخروج على القاعدة:

يبدو أن القاعدة في النحو العربي لم تحظ إلى يومنا هذا بدراسة معمّقة[١]، ولعل المتأمل يلاحظ أن القواعد بمعناها الواسع هي مجموعة من الأحكام، استخلصت من الأنماط التركيبية التي تمثل النظام التركيبي للغة العربية، وهذه الأحكام تستنبط للقياس عليها في عملية التحليل النّحوي، أو في توليد الكلام عند أبناء اللغة، ولعل هذا الأمر كان السبب الذي جعل كثيراً من هذه القواعد يجرَّد في مقولات نظرية.

والملاحظ أن هذه القواعد عند النحاة قسمان، الأول متفق عليه عند الجمهور، وهو ما بني على شواهد لا يُشك في اطرادها، والمراد بالمطّرد[٢] ههنا هو النمط التركيبي الذي يرد متكرراً في المستويات الأسلوبية المختلفة، أي أن يرد في القرآن الكريم، وفي كلام العرب شعراً ونثراً، وفي الحديث النبوي الشريف. ومن أمثلة ما بني على المطّرد قاعدة رفع الفاعل والمبتدأ والخبر، والمتلازم بين الموصول وصلته، والعامل والإسناد وغيره. ثم إن ما بني على المطّرد ينقسم قسمين أيضاً، وذلك بحسب أصل الوضع وعدمه، فهناك قواعد أصول وأخرى فروع، ومن النوع الأول، مثلاً أن يقال: إن الأصل في المفعول به التأخّر عن فعله[٣]، وبذلك تُجرَّد قاعدة مبنية على أصل الوضع، وقد يخالف هذا الأمر بشواهد مطّردة أيضاً، فيقدم المفعول به على فعله لغاية بلاغية، ومن ثم تولد قاعدة فرعية مبنية على مطردٍ خرج على أصل الوضع تقول: يجوز

---

١. هناك مؤلف يحمل عنوان " القاعدة النحوية " للباحث أحمد عبد العظيم عبد الغني، وقد تأثر صاحبه تأثراً واضحاً بمقولات سُبق بها، وقدمتها بعض الدراسات الحديثة، ويبدو تطبيقها على درسنا النحوي غير دقيق.

٢. لعل الفيصل بين المطرد وغيره ليس من السهولة تحديده، فالنحاة الأوائل لم يوضحوا وتركوا الأمر غائماً، انظر: جطل، مصطفى: نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثاني والثالث للهجرة٢/٥٦٣-٥٣٧.

٣. سيبويه، عمرو بن عثمان: كتاب سيبويه١/٢٠٣.

تقديم المفعول به على الفعل[٤]. وأصل الوضع في العربية أن يذكر الجار قبل "أن" المصدرية، وقد خولف هذا الأصل بشواهد مطردة، فحذف الجار عند أمن اللبس، مما جعلهم يجردون قاعدة مبنية على مطرد خرج على أصل الوضع تقول: يطرد حذف الجار مع "أن" المصدرية إذا أمن اللبس[٥].

أما القسم الآخر من القواعد فهو ما اختلف فيه، وشكل ملمحاً بارزاً من ملامح الخلاف النّحوي، ولعل السبب في عدم الإجماع على هذه القواعد يعود إلى أمرين، الأول هو اضطراب مفهوم المطرد عند النّحاة أحياناً، فهناك أنماط تركيبية يعتقد بعضهم أنها تطرد في الكلام شعراً ونثراً، فيجعل منها قاعدة يقيس عليها، على حين يعتقد بعضهم الآخر أن هذه الأنماط لا تطرد في كلام العرب، وبذلك لا يجوز التقعيد لها والقياس عليها، من ذلك أسلوب القلب، فقد ذهب قسم من النحاة إلى أنه يجوز في الكلام والشعر اتساعاً واتكالاً على فهم المعنى، وبناءً على ذلك حلّلوا بعض الأساليب التي وردت في القرآن الكريم قياساً على القلب، على حين ذهب نحاة الأندلس إلى أن هذا النمط غير مطرد، ولا يجوز في الكلام إنما يجوز في الشعر اضطراراً، وبذلك لم يقيسوا تلك الأساليب التي وردت في القرآن الكريم عليه، بل وجهوها وجهة أخرى[٦]. فالنحاة هنا لم يختلفوا في التقعيد والقياس على المطرد، وإنما اختلفوا في تحديد المطّرد، وبناءً على ذلك حدث الخلاف في التقعيد والقياس.

أمّا السبب الآخر الذي أدى إلى الخلاف في بعض القواعد فهو المعيار الذي يتخذه النّحوي للتقعيد، فهناك من يتشدد في المعيار ولا يقبل التقعيد إلا للمطرد، كالبصريين، وهناك من يتوسع في المعيار فيقبل التقعيد لما لم يطرد[٧]،

---

٤. المصدر نفسه ١/٦٨، ٢٠٣.

٥. أبو حيّان النَحوي، أثير الدين محمد بن يوسف: البحر المحيط١/٢٥٤، ٦٣٢.

٦. المصدر نفسه١/١٨٦-١٨٧.

٧. إن ما لم يطرد له تسميات كثيرة، منها الشاذ والقليل والنادر والرديء والقبيح وغيره، وقد تتداخل هذه المصطلحات فتختلف من نحوي إلى آخر، انظر: فلفل، محمد عبدو: ما لم يطّرد في قواعد النحو والصرف عند أعلام النحاة حتى القرن السابع الهجري ص١.

كالكوفيين، فالمطرد في المنادى، مثلاً، ألاّ يأتي معرفّا بالألف واللام، وقد جاءت بعض الشواهد ودخلت أداة النداء فيها على ما عُرّف بالألف والـــلام، فتناولهـــا البصريون بالتأويل والتقدير، لتنسجم والقواعد المطّردة، أما الكوفيون فتمســكوا بالظاهر، واعتبروا المعرف بالألف واللام هو المنادى، ولم يكتفوا وإنما جعلـــوا من هذه الشواهد القليلة قاعدة يقاس عليها[٨]. والملاحظ أن اختلاف المعيار فـــي التقعيد لا يقتصر على الخلاف في بعض القواعد، بل يؤدي إلى تعدد في التحليل أحياناً، كما رأينا عند البصريين والكوفيين في تحليل المعرف بالألف واللام بعـــد أداة النداء.

وربما أدّى تفاوت القواعد عند النّحوي الواحد إلى أن يمنع القيـــاس علـــى بعضها في توليد الكلام، ويجعل عملية القياس عليهـــا تقتصـــر علـــى الشـــواهد الفصيحة التي يحللها، وذلك إذا لم يستطع أن يوجهها في ضوء قاعـــدة أقـــوى. يرى أبو حيان (ت٧٤٥هـ) مثلاً أن زيادة الباء فـــي المفعـــول لا تنقـــاس[٩]. وعندما يأتي إلى قوله تعالى: [إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَـــلاَ تَخَـــافُوهُمْ وخَافُونِ إِنْ كُنْتُم مُّؤْمِنِينَ] [١٠]. يقف عند إحدى القراءات[١١] "يخوفكم بأوليائه "، فيجيز في أحد الوجوه زيادة البـــاء فـــي " أوليائـــه " ليجعلهـــا مفعـــولاً ثانيـــاً لـــ "يخوف "[١٢]. ولعله في هذا الأمر لم يقع في تناقض، وإنما يعتمد أمثال هذه القواعد المبنية على شواهد قليلة في التحليل إذا اضطره الأمر إلى ذلك، مـــدركاً أنها غير مطردة، وبذلك نرى قواعد ضعيفة مأخوذة من شواهد قليلة يقيس عليها النّحوي في تحليله، عندما لا يجد قاعدة أقوى يوجه في ضوئها، وقواعد أخـــرى أقوى تتجاوز ذلك ليقاس عليها في تحليل الكلام وتوليده.

---

٨. ابن الأنباري، كمال الدين أبو البركات: الإنصاف في مسائل الخلاف١/٣٣٥-٣٤٠.

٩. البحر المحيط٢/٢٢٦.

١٠. سورة آل عمران، الآية "١٧٥ ".

١١. قراءة أُبيّ والنُّخعي، انظر: مكرم، عبد العال سالم، وعمر، أحمد مختار: معجم القراءات القرآنية ٢/٨٥.

١٢. البحر المحيط٣/١٢٥.

وقد تتشعب القواعد وتمتد، فتتجاوز عناصر الأنماط التركيبية، لتشمل معطيات السياق، فيقال مثلاً: " متى أمكن حمل الكلام على غير إضمار مع صحة المعنى كان أولى من حمله على الإضمار"(١٣)، و"الضمير لا يعود على غير الأقرب إلا بدليل"(١٤)، وغير ذلك.

والملاحظ أن الشواهد التي خرجت على القاعدة واقتضت تعدداً تتنوع الأوجه في تحليلها وتتعقد بحسب مفهوم القاعدة وغيره، إذ إن التعدد في الشواهد المطردة التي خرجت على القواعد المتفق عليها يبدأ بسيطاً، ثم يتعقد في الشواهد التي لم تبلغ حد المطّرد وخرجت على هذه القواعد، وذلك بسبب كثرة القواعد الفرعية التي تتنوع وتختلف من نحوي إلى آخر لتوجُّه الشواهد في ضوئها.

ومن القواعد المتفق عليها المبنية على مطرد وخرجت عليها شواهد مطردة اقتضت تعدداً قاعدةُ الإسناد، فبعد أن لاحظ النحاة أن هذه الفكرة تتجلى واضحة في معظم الأنماط التركيبية، بمظهر الجملة الفعلية والجملة الاسمية، جعلوا منها قاعدة لا بد منها في كل عبارة مستقلة(١٥)، لا بل ذهب بهم الأمر إلى أبعد من ذلك عندما راحوا يلمسونها في أجزاء العبارات التي تحقق في جزء منها الإسناد.

ومن المطّرد الذي خرج على هذه القاعدة واقتضى تعدداً بعض العبارات المستقلة، مثل أسلوب المدح والذم، " نعم الرجلُ زيدٌ وبئس الرجلُ زيدٌ"، و" حبذا زيدٌ". فهذه عبارات مستقلة تؤدي أسلوباً معيناً كما هو معروف، ويظهر أن غموض الصيغة الصرفية لـ " نعم " و " بئس " و" حبذا " جعل النمط التركيبي لهذه الأساليب قلقاً يخرج على ما يتجلى به الإسناد، فلا هو بالنمط الفعلي ولا هو

---

١٣. المصدر نفسه١/٥٧٥.

١٤. المصدر نفسه٢/٦.

١٥. كتاب سيبويه١/٢٣، وللمزيد انظر: نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثاني والثالث للهجرة٢/٤٩١-٤٩٢.

بالنمط الاسمي، ومن ثم قاد ذلك إلى تعدد الأوجه في تحليل هذه الأساليب المطردة، فقد رأى البصريون أن " نعم " و"بئس " أفعال، وبذلك توجه العبارة على نمط الإسناد الفعلي، ورأى الكوفيون أنها أسماء، فيوجه الأسلوب على نمط الإسناد الاسمي[١٦]. أما صيغة " حبذا "، فقالوا: إن الأصل في " حبّ " هو فعل متعدٍ[١٧]. وعن الخليل (ت١٧٠هـ) وسيبويه(ت١٨٠هـ) أنّ " حبّ " فعل ماض و " ذا " فاعل، فيوجّه النمط على الإسناد الفعلي، وعنهما أيضا أن "حب " و "ذا " ركّبا وصارا اسماً واحداً مرفوعاً مبتدأ [١٨] ، وبذلك يوجه الأسلوب على الإسناد الاسمي. ولا شك أن التعدد الذي يحدث في هذه الألفاظ يقود إلى تعدد يحدث في العناصر التركيبية التي تقع بعدها[١٩].

ولا ينحصر الخروج على قاعدة الإسناد في هذه العبارات التي تستقل بنفسها وتؤدي أسلوباً معيناً، وإنما يمتد ليقع في عبارات أوسع تجلى الإسناد في قسم منها، وبقي القسم الآخر قلقاً لا بد له من توجيه في ظل العملية الإسنادية، وبذلك تتعدد الأوجه في تحليله، نحو أسلوب الشرط بـ "لو" كأن نقول: لو أنك قادم لأكرمتك. فهذا النمط التركيبي يحقق أسلوب الشرط، وقد تجلى الإسناد في قسم منه وهو الجواب الذي جاء جملة فعلية مؤلفة من مسند " الفعل "، ومسند إليه " الفاعل " غير أنه ينبغي أن يكون بعد " لو " نمط إسنادي كما في الجواب، لذلك تعددت الأوجه في تحليل المصدر المؤول، فعن سيبويه أنه في موضع المبتدأ[٢٠]. وعن المبرد(ت٢٨٥هـ) أنه في موضع الفاعل لفعلٍ

---

١٦. أبو حيّان النّحوي، أثير الدين محمد بن يوسف: ارتشاف الضَرَب من لسان العرب٣/١٩.

١٧. المصدر نفسه٣/٢٩.

١٨. المصدر نفسه ٣/٢٩، وفي الكتاب ٢/١٨٠: " وزعم الخليل رحمه الله أن حبذا " بمنزلة " حبَّ الشيءُ"، ولكن " ذا " و" حب " بمنزلة كلمة واحدة نحو " لولا " وهو اسم مرفوع...".

١٩. ارتشاف الضرب٣/١٩،٢٩، ولابد من الإشارة إلى أن ما يحدث من تعدد في بعض الأساليب المطردة الأخرى مثل صيغة التعجب " ما أفعله" وأسماء الأفعال وغيره سببه يعود إلى الخروج على قاعدة الإسناد، وقد اكتفينا في المتن بما أوردناه.

٢٠. ابن هشام الأنصاري، جمال الدين: مغني اللبيب ص٣٥٦.

محذوف[٢١]. ونرى فيما تقدم أن ما أدى إلى التعدد في تحليل المصدر المؤول هو الخروج على نمط الإسناد الذي ينبغي أن يحدد بعد أداة الشرط.

ولا يتمثل خروج المطّرد على القاعدة بما خرج على الإسناد، فهناك قواعد أخرى بنيت على مطرد، وخرجت عليها شواهد مطردة فاقتضى هذا الأمر تعدداً في التحليل، من ذلك مثلاً قاعدة العامل، فقد رأى النحاة أن العلامة التي تلحق أواخر الكلام تتغير بسبب التأثر والتأثير بين الكلم، ثم أطلقوا على هذا الاعتقاد المبني على المطّرد مصطلح العامل، وجعلوا منه قاعدة شمولية تنطبق على أي تغير للعلامات الإعرابية كافة، ثم قسموا هذه القاعدة إلى أصول وفروع[٢٢].

ومن المطرد الذي خرج على هذه القاعدة واقتضى تعدداً النمط التركيبي لأسلوب الاشتغال، تقول قاعدة العامل المبنية على المطّرد: إن كل علامة إعرابية تلحق آخر الكلمة المعربة في التركيب لا بد لها من عاملٍ أوجدها، وعندما جاؤوا إلى الاسم المنصوب في أسلوب الاشتغال لم يجدوا عاملاً ظاهراً، كما في قولك: زيداً ضربته. ومن قواعد العامل ألاّ يعمل الفعل في الاسم المنصوب المقدم عليه إذا أخذ ضميره، لذلك روي عن الكسائي(ت١٨٩هـ) أن الهاء العائدة على الاسم المنصوب زائدة في هذا الأسلوب، والعامل في الاسم الفعل الظاهر، غير أنه تحليل لا يخلو من نقص، لأن الشاغل، وهو الذي يرد بعد الفعل العامل في نصبه، قد يكون غير ضمير السابق، كأن يقال: زيداً ضربت غلامه، وبذلك لا يصح اعتبار " غلامه "، زائداً[٢٣]. وعن الفرّاء (ت٢٠٧هـ) أن الفعل عامل في الظاهر المتقدم والضمير المتأخر، وهو رأي ليس بأسلم مما تقدمه، لأن الفعل الذي يتعدى إلى واحدٍ يصير متعدياً إلى اثنين،

٢١. المصدر نفسه.

٢٢. حسن، عباس: اللغة والنحو بين القديم والحديث ص١٩٦-٢٠٥، وللمزيد حول دراسة العامل انظر: مصطفى، إبراهيم: إحياء النحو ص٢٢-٣٥، وياقوت ، أحمد سليمان: ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقها في القرآن الكريم ص٤٣-٨٦.

٢٣. ابن هشام، جمال الدين: شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب ص٢١٥.

وهذا غير صحيح[٢٤]. ورأى الجمهور أن العامل في الظاهر المنصوب هو فعل مقدر يفسره المذكور[٢٥].

وربما تضافرت قاعدتان مطردتان في تفسير بعض الشواهد المطردة التي خرجت عليهما، فيتشعب بهذا التضافر التعدد ويتداخل، كما في تفسير المرفوع بعد " لولا " إذ ينبغي على النمط التركيبي بعدها أن يكون إسناديّاً، وبذلك فُسر المرفوع بعدها بوجهين، فاعل لفعل محذوف ومبتدأ محذوف الخبر، ثم تتدخل قاعدة العامل مع قاعدة الإسناد في تعدد الأوجه عندما يتعين تحديد العامل في الفاعل، فهناك من يراه الفعل المقدر، وهناك من يراه " لولا " بالنيابة عن الفعل المقدر[٢٦].

ويتجلى خروج المطّرد على القاعدة المتفق عليها بوجه آخر يختلف عما مر، فهناك شواهد كثيرة خرجت على أصل الوضع، من ذلك بعض الشواهد التي تخرج في البداية لغاية بلاغية، ثم تصبح مطردة تستخدم في المستويات الأسلوبية كافة، كما في أنماط الاتساع والمجاز التي تخرق قانون التوارد بين المفردات في التركيب، فيقود هذا الأمر إلى تعدد في التحليل. قال تعالى: [وَجَاؤُوا عَلَىَ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْراً][٢٧]. وقع في الآية الكريمة المصدر " كذب " صفة لاسم الذات " دم "، والقاعدة المطردة لاسم الذات ألاَّ يوصف باسم معنىً، غير أن الغاية البلاغية التي تجلى بها البيان الإلهي اتسعت في قانون التوارد بين الألفاظ، وهو خروج على أصل الوضع، فاقتضى ذلك تعدداً في التحليل يذكره لنا أبو حيان، وهو أن يكون الوصف بالمصدر على سبيل المبالغة، أو أن يقدَّر مضاف محذوف، أي ذي كذب، ثم حُذف المضاف وقام المضاف إليه مقامه[٢٨]. ويظهر للمتأمل أن هذا النمط

٢٤. المصدر، نفسه.

٢٥. المصدر نفسه.

٢٦. مغنى اللبيب ص٣٥٩.

٢٧. سورة يوسف، الآية "١٨ ".

٢٨. البحر المحيط ٢٨٩/٥.

المطّرد الذي خرج على أصل الوضع يشيع كثيراً في الاستخدام، ويتجلى بمظاهر مختلفة[٢٩].

أما ما لم يطرد وتعددت فيه الأوجه لخروجه على القاعدة المتفق عليها فكثير جداً، يطالعنا في المستويات الأسلوبية الأدبية وغيرها، ويرد هذا النوع بعبارات مروية عن العرب الذين يمثلون الفصحى، أو بأخرى تمثل اللهجات وتعود إلى بعض القبائل العربية، كما يتجلى في أساليب القرآن الكريم وقراءاته وفي الشعر والأمثال. ولا بد من الإشارة إلى أن هذا النمط قد يتشعب فيه التعدد ويتعقد لكثرة القواعد النحوية التي يوجه الشاهد في ضوئها، وهي تختلف من نحوي إلى آخر في كثير من الأحايين.

يستخدم العربي لغته، وهو في ذلك يسير وفق نظام معين تقتضيه الأنماط التركيبية لنظام اللغة التركيبي، يسير وفق هذا النظام من غير أن يدرك القواعد التي تتحكم في كلامه، وربما خرج عما تقتضيه الأنماط المطردة، فجاء بعبارات نادرة تبتعد قليلاً أو كثيراً عن المطرد، وهو بهذا لم يأتِ بأمر مخالفٍ للطبيعة الإنسانية، لأن اللغة ظاهرة إنسانية، والظواهر الإنسانية لا يمكن أن تخضع لقواعد مطلقة. ومما جاء عمّن يوثق به من العرب وخرج على المطرد قولهم: هذا عبدُاللهِ منطلقٌ. فالمطّرد في كلام العرب أن ينتصب المشتق الذي يقع بعد الخبر الجامد إذا كان المبتدأ اسم إشارة، وقد جاء هذا الاستخدام مخالفاً للمطّرد برفع "منطلقٌ"، وقاد هذا الخروج إلى تعدّدٍ في التحليل، فعن الخليل أنّ هذا المرفوع إما أن يكون خبراً لمبتدأ محذوف فيكون التأويل: هذا عبدُالله هو منطلق، وإما أن تجعل الاسمين " عبدُالله " و "منطلق " جمعياً خبراً عن المبتدأ

٢٩. انظر مثلاً: كتاب سيبويه٤٨/١، ٤٩، ١٨١، ٢١٣، ٢٧/٢، ٢٩، ٣١، ٤٧ - ٤٨، ١١٩، ٣١٩، ٣٢٥، ٣٥٩ والفراء، يحيى بن زياد: معاني القرآن٢٣٤/٣.

اسم الإشارة[٣٠]. ومن ثم نرى أنّ العربي الذي يوثق به ويحتجّ بلغتــه اســتخدم نمطاً غير مطّرد، وقاد هذا الأمر إلى تعدّد في التحليل النحوي.

وقد كان لاختلاف اللهجات أثر واضح في كثير من الشواهد التــي تطّــرد وتعددت الأوجه في تحليلها، فالاختلافات اللهجية أمرٌ طبيعي عنــد أي جماعــة لغوية، لأنه كلّما تعدّدت الأمكنة التي يقطنها أبناء اللغة الواحدة تعدّدت اللهجــات لتلك اللغة[٣١]، وإذا كانت اللهجات العربية متقاربة من حيث الخصائص العامــة لانتمائها إلى أمّ واحدة هي الفصحى فإنّ هذا التقارب لا يعني التطابق والتماثــل، بل يبقى لكلّ لهجة بعض الظواهر التي تميّزها من غيرها[٣٢]. واقتضى المــنهج النّحوي أن تراعى اللهجات العربية في أثناء عمليّــة التقعيــد للّغــة الفصــحى، فأصبحنا نطالع في الدرس النّحوي بعض الشواهد التي خرجت علــى المطّــرد لأسباب لهجيّة، واقتضى خروجها في كثير من الأحــايين تعــدّداً فــي التحليــل النحوي، من ذلك أنّ المطّرد في استخدام " ليس " أن تدخل على جملة اســمية، فترفع المبتدأ ويكون اسمها، وتنصب الخبر فيكون خبرها، وجاء عن تميم قولهم: ليس الطّيبُ إلا المسكُ. فإنهم يهملون " ليس " إذا انتقض النفي حملاً على " ما " النافية المهملة، وقد راعى بعض النّحاة هذا الأمر فرأى أنّ " ليس " مهملة حملاً على "ما " عند بني تميم، و" المسك " مبتدأ خبــره " الطيــب " و " إلا " حــرف حصر[٣٣]. غير أن بعضهم الآخر حمل " ليس " ههنا على المطّرد الذي يقتضي

---

٣٠. كتاب سيبويه٨٣/٢.

٣١. دى سوسِّر، فردينان: محاضرات في الألسنية العامة ص٢٤٤.

٣٢. نظام الجملة عند اللغويين في القرنين الثاني والثالث للهجرة٤٧٧/٢، وللمزيد انظر مثلاً: أنيس، إبراهيم: في اللهجات العربية ص١٠-٢٤.

٣٣. ارتشاف الضرب من لسان العرب٩٣/٢، وأبو حيّان، أثير الدين محمد بن يوسف: منهج السالك ص٥٢، ومغني اللبيب ص٣٨٧-٣٨٩.

إعمالها، وبذلك تشعّب التعدّد بما بعدها وتعقد[٣٤]. إذن أدّى ما لم يطّرد لأسباب لهجيّة إلى أن تعدّدت الأوجه في تحليله.

وهناك أيضاً شواهد تطالعنا في القرآن الكريم خرجت في ظاهرها على المطّرد، وأدّى ذلك إلى تعدّد في تحليلها النّحوي، فقد يعدل البيان الإلهي عن المطّرد لغاية بلاغية إعجازية، إذ يؤدي الخروج في القرآن الكريم إلى حدوث المفاجأة في أثناء التلقّي، ولا شك أنّ المفاجأة تُحدث لذّة في النفس، وتزيد التواصل قوّةً، كذلك يؤدّي هذا الخروج إلى أن يجعل الأسلوب يتحمل أنماطاً تركيبية عديدة، لكلٍّ منها دلالاته الخاصة به، وبذلك يخفي هذا الأسلوب الذي خرج في ظاهره على النمط المطّرد أطيافاً من الدلالات الجزئية، تكثر وتقل بحسب الأنماط التركيبية التي يُحتمل أن يوجّه الأسلوب في ضوئها. وممّا جاء خارجاً على المطّرد في القرآن الكريم واقتضى تعدّداً قوله تعالى [وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلاَّ مَنْ سَفِهَ نَفْسَه] [٣٥]. وقع في الآية الكريمة الاسم المنصوب "نفسه" موقع التمييز، وهو معرّف بالإضافة، وهذا مخالف لقاعدة مطردة من قواعد التمييز، وهي أن يكون نكرة، وبذلك تعدّدت الأوجه فذهب بعض الكوفيين إلى أنه تمييز وجاء معرّفاً شذوذاً[٣٦]. وذهب بعضهم الآخر إلى أنه مشبه بالمفعول به أو مفعول به على أنّ " سفه " يتعدّى بنفسه مثل " سفّه"[٣٧]. وعن أبي عبيدة (ت٢١٠هـ) أنّ الفعل ضمن معنى " أهلك " و " نفسه " مفعول به [٣٨]. وعن الزّجّاج (ت٣١١هـ) أن الفعل ضمِّن معنى " جهل "[٣٩] وعن مكّي (ت٤٣٧هـ) أنّ "نفسه" توكيد لمؤكّدٍ محذوف، والتأويل: سفه قولَه نفسَه[٤٠]. وعن

---

٣٤. ارتشاف الضرب٩٣/٢، ومنهج السالك ص٥٢، ومغني اللبيب ص٣٨٧-٣٨٩.

٣٥. سورة البقرة، الآية "١٣٠".

٣٦. البحر المحيط ٥٦٥/١.

٣٧. المصدر نفسه.

٣٨. المصدر نفسه.

٣٩. المصدر نفسه.

٤٠. المصدر نفسه.

بعض البصريّين أن الاسم انتصب على إسقاط الجارّ، أي سفه في نفسه [٤١]. فالخروج على القاعدة المطّردة الذي جاء في هذه الآية الكريمة هو الذي أدّى إلى التعدّد المذكور.

وإذا كنّا نطالع بعض الشواهد التي خرجت على القاعدة في قراءة الجمهور فهناك شواهد كثيرة من هذا النوع نجدها في القراءات الأخرى، والقراءة سنة لا تخالف[٤٢]، لذلك لا بد من توجيه لما خرج على القاعدة. نأخذ مثالاً من الكثير الذي خرج على المطّرد واقتضى تعدّداً، وهو إحدى القراءات في الآية الكريمة:[وَمَنْ يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللهِ وَرَسُولِه ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ] [٤٣]. قرئت الآية برفع المضارع "يدركه"[٤٤]، وعن ابن جني(ت٣٩٢هـ) أنه قدر مبتدأ قبل "يدركه"، أي هو يدركه، وجعل ذلك من باب العطف على التوهم[٤٥]، وخرِّجت القراءة بوجه آخر، وهو أن يكون رفع الكاف منقولاً من الهاء بعدها، وكأن القارئ أراد أن يقف على الكلمة فنقل الحركة[٤٦].

ومما خالف المطّرد واقتضى تعدّداً شواهد كثيرة جاءت في الشعر، وذلك أنّ لغة الشعر بنظامها غير المألوف الذي يتجلّى بالإيقاع والتكثيف وغيره تختلف عن لغة النثر[٤٧]، ومن ثم رأى سيبويه أن الجوازات التركيبية الخاصّة بالشعر التي خرجت على المطرد أكثر من أن تحصى، وعلى النحوي أن يجد

---

٤١. المصدر نفسه.

٤٢. كتاب سيبويه ١٤٨/١.

٤٣. سورة النساء، الآية "١٠٠".

٤٤. قراءة طلحة بن سليمان، انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان: المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها١٩٥/١.

٤٥. المصدر نفسه، البحر المحيط ٣٥٠/٣.

٤٦. البحر المحيط٣٥٠/٣.

٤٧. عبد اللطيف، محمد حماسة: الجملة في الشعر العربي ص٥٠-٥١.

توجيهاً لهذه الجوازات، لأن الشعراء لا يستخدمون أسلوباً إلا وهم يحاولون بــه وجها[٤٨] من وجوه العربية الجائزة. ونكتفي بمثال واحد من أساليب الشعر التي خرجت على المطرد واقتضت تعدداً في التحليل النحوي، قال الشاعر[٤٩]:

صَدَدْتِ فَأَطْوَلْتِ الصُّدُوْدَ، وقَلَّمَا   وِصَالٌ عَلَى طُوْلِ الصُّدُوْدِ يَدُوْمُ

فالمطرد في الفعل " قَلَّ " أنه إذا دخلت عليه " ما " تكفّه عن عمــل الرفع، ولا يدخل حينئذ إلا على جملة فعلية صُرِّح بفعلها[٥٠]، وقد جاء في البيت ما خالف هذا المطرد ، وأشار إليه سيبويه بأنه ضرورة شعرية، وجعله من باب التقديم والتأخير[٥١]، فاعلاً للفعل المؤخر " يدوم ". غير أن الفاعل لا يتقدم على فعله عند البصريين، فقدَّرُوا له فعلاً من جنس المذكور[٥٢]. وعــن المبــرد أن "ما " زائدة لا كافة، و "وصال " فاعل للفعل " قــلّ "[٥٣]. وذهــب آخــرون أن "وصال" مبتدأ، وأناب الشاعر الجملة الاسمية مناب لفعلية[٥٤]. وبــذلك تعــددت الأوجه فيما جاء مخالفاً للمطرد في الشعر.

كذلك تطالعنا الأمثال بما خرج عن المطرد، وهو أمرٌ ليس بالغريب، فالمثل معرض للحذف استغناءً بمعرفة المراد، وذلك لكثرة دورانه على الألسنة [٥٥]، ومما جاء مخالفاً للمطرد واقتضى تعدداً قولهم: عسى الغوير أبؤسا[٥٦]. فالمطرد

---

٤٨. كتاب سيبويه ٢٦/١، ٣٢.

٤٩. البيت من ديوان عمر بن أبي ربيعة من الشعر الذي نسب إليه، انظر: ديوانه ص٤٩٤.

٥٠. مغني اللبيب ص٤٠٣.

٥١. كتاب سيبويه٣١/١.

٥٢. مغني اللبيب ص٤٠٣.

٥٣. المصدر نفسه، وفي المقتضب لم يوضح المبرد ما نُسب إليه، انظر: المقتضب ٨٤/١.

٥٤. مغني اللبيب ص ٤٠٣.

٥٥. كتاب سيبويه ٢٨٤/١.

٥٦. يُروى عن الزباء، وقيل: قالته عندما علمت أن قصيراً بات مع رجاله في غارٍ صغير في طريق عودته من العراق، انظر: الميداني، أبو الفضل أحمد: مجمع الأمثال٣٤١/٢.

في عسى ألا يأتي خبرها اسماً صريحاً، وجاء هذا المثل مخالفاً للمطرد، فخــرِّج بأوجه، منها ما ذكره سيبويه، وهو أن عسى أجريت مجرى كان في الاســتخدام فجاء منصوباً[٥٧]. وخرجه المبرد بتقدير " أن " والفعل الناقص، أي أن يكــون أبؤساً[٥٨]، فجعل الاسم المنصوب خبراً لــ "كان " المقدرة. وخرجه ابن هشــام (ت٧٦١هــ) بأن قدر الفعل الناقص يكون، أي يكــون أبؤســا [٥٩]. فتعــددت الأوجه بهذا المثل الذي تجلى بأسلوبٍ لم يطرد.

وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن القاعدة النحوية قسمان، أحدهما متفــق عليــه، والآخر مختلف فيه، وأن ما خرج على القاعدة المتفق عليهــا واقتضــى تعــدداً شواهد كثيرة، بعضها مطرد، وبعضها الآخر غير مطرد، وهذا الأخير يتشــعب التعدد فيه ويتعقد، بسبب القواعد المختلف فيها عند النحــاة التــي يُوَجَّــه غيــر المطرد في ضوئها.

ثانياً - طبيعة اللغة:

لعل الظواهر الإنسانية لا تخضع في أثناء دراستها لأحكام حاسمة، وذلــك لأنها تعكس طبيعة الإنسان المعقدة والمحيرة، ففيها ما فيها من أمورٍ خفية يبقــى العلم يلاحقها، وتبقى رؤيته لها ضعيفة ينتابها الشكُّ والتردد. وإذا كانــت اللغــة أهم الظواهر التي تعكس طبيعة الإنسان فإنه ما من غرابة في أن تطالعنا أحيانــاً بعناصر تركيبية محيرة، لا يعرف لها وجه محدد، ولا يمكننا أن نجد لها أســباباً سوى طبيعة اللغة[٦٠]، إذ تواجهنا هذه العناصر المحيرة بعبارات لم تخرج على القاعدة، ولم يؤثر فيها أمرٌ سياقي.

---

٥٧. كتاب سيبويه٣/١٥٨-١٥٩.

٥٨. المقتضب٣/٧٠.

٥٩. مغني اللبيب ص٢٠٣.

٦٠. يذكر داود عبده أن الغموض في البنية التركيبية أمرٌ شائع في مختلف اللغات الإنسانية، انظــر: التقدير وظاهر اللفظ ص٧.

ويتجلي هذا بمظاهر متنوعة وكثيرة، من ذلك مثلاً أن يصلح الموقع الذي يشغله لفظ ما في نمط تركيبي معين لغير وجه، لعدم وجود قرينة حاسمة.

فقد يحتمل الموقع التركيبي غير وجه، يتحدد كلٌّ منها بظهور العلامة الإعرابية، وعندما تغيب هذه العلامة عن اللفظ، لأسباب تقتضيها طبيعة اللغة العربية تتعدد الأوجه. ومن ذلك مثلاً قولهم: هذا لقيته. يحتمل موقع " هذا " في التركيب وجهين مطردين، الابتداء والجملة بعده خبره، أو النصب على الاشتغال والجملة بعده مفسِّرة(٦١)، وبقي التركيب في هذا المثال يحتمل الوجهين، لأن اللفظ الذي شغل الموقع لم تظهر عليه علامة إعرابية لبنائه. ومن هذا النمط قوله تعالى: [سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى] (٦٢). يحتمل الموقع الذي يشغله " الأعلى " وجهين، لتعذر ظهور الحركة على الاسم، فيجوز فيه أن يكون في موضع نصب، صفة لـ " اسم " الذي عُرِّف بالإضافة، ويجوز فيه أيضاً أن يكون في موضعٍ جر صفة لـ " رب " الذي عرف بالإضافة(٦٣). وقال تعالى: [وَهَذَا ذِكْرٌ مُبَارَكٌ أَنزَلْنَاهُ](٦٤). يتحمل موقع "أنزلناه" وجهين لعدم ظهور الحركة على الجملة، فيجوز أن تكون الجملة في موضع رفع، صفة ثانية لـ " ذكر "، ويجوز أن تكون في موضع نصب، حالاً من "ذكر"، لأنه خصّص بالوصف(٦٥). وربما قيل: ربّ رجلٍ صالحٍ لقيته. فدخول العامل الطارئ " رب " على الاسم المعرب " رجل " جعل الموضع يتحمل وجهين لغياب الحركة الإعرابية، وهما الابتداء، والنصب على الاشتغال(٦٦). وبذلك يتبين لنا مما تقدم أن غياب الحركة الإعرابية لأسباب تقتضيها طبيعة اللغة جعل الموقع التركيبي يصلح لغير وجه.

---

٦١. مغني اللبيب ص١٨٢.
٦٢. سورة الأعلى، الآية "١".
٦٣. مغني اللبيب ص ٧٢٢.
٦٤. سورة الأنبياء، الآية "٥٠ ".
٦٥. مغني اللبيب ص٥٦١.
٦٦. المصدر نفسه ص ١٨٢، ٧٢٢.

وقد يصلح الموقع الذي تشغله كلمة ما لغير وجه لأسباب أوسع مما تقــدم، فيكون نتيجة للعلاقة النحوية المعقدة بين المفردات في التركيب. وكأن يقال مثلاً: جاء زيدٌ ركضاً. يصلح في " ركضاً " وجه المفعولية المطلقة للفعل " جاء " لأن هذا الأخير تشمل دلالته دلالة فعل المصدر " ركض "، ويصلح في هــذا الاســم المفعولية المطلقة لفعله المحذوف الذي ناب عنه، أي يــركض ركضــاً، كــذلك تصلح فيه الحالية أيضاً فيكون بمعنى " راكضاً "[٦٧]. وبذلك نرى أن ما جعــل اللفظ في هذا التركيب يحتمل غير وجه مطرد هو العلاقة النحوية المعقــدة بــين المفردات، وهذا الأمر تقتضيه طبيعة اللغة، لأن الشاهد لم يخرج على القاعــدة، ولم يؤثر فيه أمرٌ سياقي.

ويحدث شبيه بذلك في الكاف التي تقع هذا الموقع. قال تعالى: [يَــا أَيُّهَــا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تُبْطِلُوا صَدَقَاتِكُمْ بِالْمَنِّ وَ الأَذَى كَالَّذِي يُنفِقُ مَالَهُ رِئَاءَ النَّــاسِ وَلاَ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ] [٦٨].تحتمل الكاف من " كالذي " في مثل هذا التركيــب أينما وقع الحالية، أو المفعولية المطلقة على أنها صــفة نابــت عــن المصــدر المحذوف[٦٩]، والوجهان مطردان في هذا الموقع.

ولعل الأمر لا يختلف في الضمير المنفصل الواقع بين المبتــدأ والخبــر أو بين ما أصله مبتدأ وخبر، كما في قوله تعالى: [إِنَّكَ أَنْتَ السَّــمِيع العَلِــيمُ] [٧٠]. يحتمل الضمير المنفصل في الآية الكريمة الفصل، لأنه وقــع بــين معــرفتين، ويحتمل التوكيد لاسم " إنّ " الضمير المتصل، كذلك يحتمل الضمير " أنــت " أن يكون مبتدأ، في موضع رفع، والاسم بعده الخبر، والجملة من المبتدأ والخبر في موضع الخبر لــ " إنّ "[٧١]. والأوجه السابقة محتملة في مثل هذا التركيب أينما

---

٦٧. المصدر نفسه ص٧٢٩-٧٣٠.

٦٨. سورة البقرة، الآية "٢٦٤".

٦٩. مغني اللبيب ص٧٨٢.

٧٠. سورة البقرة، الآية " ١٢٧ ".

٧١. البحر المحيط ٥٥٩/١.

وقع ، لأسباب تقتضيها طبيعة اللغة، وليس هناك قرينة حاسمة تحدد وجهاً وتلغي غيره.

وربما كان الموقع الذي يشغله تركيب ما في العبارة يصلح لغير معنى نحوي بسبب الغموض الذي تسببّه العلاقة النحوية المعقدة، من ذلك قولهم: قام القوم ما خلا زيداً. يصلح في المصدر المؤول من " ما " وصلتها غير وجه يطرد وقوعه هذا الموقع، وفيه رائحة المعنى النحوي الذي في المصدر المؤول، لذلك يجوز أن تكون " ما " وصلتها في موضع الحال، والمعنى قام القوم خالين عن زيد(٧٢)، ويصلح أيضاً معنى الظرفية الزمنية، والتقدير: قام القوم وقت خلوهم عن زيد(٧٣)، كما يصلح أن يكون المعنى على الاستثناء، أي قام القوم غير زيد (٧٤). فهذه المعاني جمعياً ليست بالغريبة في مثل هذا التركيب عن "ما " وصلتها. ومن ذلك أيضاً ما يقع موقع المفعولية للأفعال التي تصلح للتعدية إلى مفعول واحد وإلى مفعولين. قال تعالى: [فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّار] (٧٥). وإن غياب القرينة التي تحدد التعدية للفعل " تعلمون " المعلق عن العمل لفظاً جعل الجملة الاسمية المصدرة باسم استفهام، باعتبار " من " استفهامية، جعلها تحتمل وجهين، فيصلح فيها أن تكون في موضع المفعولين، على أن الفعل يتعدى إلى اثنين، ويصلح أن تكون في موضع المفعول، على أن الفعل يتعدى إلى واحد، لأنه بمعنى " عرف "(٧٦)، ويطرد استخدام الفعل في كلا الوجهين. وهكذا يتبين لنا مما تقدم أن طبيعة اللغة تجعل أحياناً العلاقة النحوية بين المفردات معقدة، فيولد هذا الأمر تعدداً في معاني بعض العناصر النحوية من خلال صلاحية الموقع الذي يشغله لفظ ما لغير وجه، وهو أمرٌ يتجاوز

---

٧٢. مغني اللبيب ص١٧٩.

٧٣. المصدر نفسه.

٧٤. المصدر نفسه.

٧٥. سورة الأنعام، الآية " ١٣٥ ".

٧٦. البحر المحيط ٢٢٩/٤

غياب الحركة الإعرابية كما نلاحظ، فيشمل العلاقة النحوية بين عناصر النظام التركيبي، ولعل الأمثلة على هذا النمط كثيرة نكتفي بما تقدم منها.

ويظهر التعدد الذي تؤدي إليه طبيعة اللغة بوجه آخر، وهو أن تتعدد معاني المبنى للفظ ما، لعدم وجود قرينة تحدد وجهاً معيناً، ويحدث هذا الأمر في الأدوات والأفعال والأسماء.

تطالعنا جملة من الأدوات بهذا النمط، من ذلك مثلاً " أن " عندما تحتمل التفسير وغيره. قال تعالى: [وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي] [٧٧]. يحتمل في " أن " اعتبارها تفسيرية، لأن قاعدة أن المفسرة محققة في هذا التركيب، وهي أن تسبق بجملة فيها معنى القول من غير حروفه، وتليها جملة، ويحتمل أيضاً أن تكون حرفاً مصدريّاً، تؤول وما بعدها بمصدر على إسقاط الجار[٧٨]، لأنه، كما هو معروف، يطرد إسقاط الجار قبل " أن " المصدرية [٧٩]. وبذلك نرى أن هذا الشاهد لم يخرج على قاعدة حتى اقتضى تعدداً، لأن الأوجه التي احتملها مطردة، ثم إنه ليس هناك مؤثر سياقي أدّى إلى ذلك، لأن هذا التركيب يحدث فيه أينما وقع. ولا يختلف الأمر في قوله تعالى: [وَنُودُوا أَنْ تِلْكُمُ الْجَنَّةُ أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُم تَعْمَلُونَ][٨٠]. تحتمل " أن " التفسير، وتحتمل أن تكون المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن، والجملة بعدها في موضع الخبر[٨١]، والوجهان مطردان في مثل هذا التركيب.

كما يحدث ذلك في الأداة " ما " عندما تحتمل الموصولية وغيرها. قال تعالى: [وَمَا بِكُم مِّن نعْمَةٍ فَمِنَ اللهِ] [٨٢]. تحتمل " ما " أن تكون شرطية وأن

---

٧٧. سورة المائدة، الآية "١١١".

٧٨. البحر المحيط ٦٥/٤.

٧٩. المصدر نفسه٢٥٤/١.

٨٠. سورة الأعراف، الآية "٤٣".

٨١. البحر المحيط ٣٠٢/٤.

٨٢. سورة النحل، الآية "٥٣".

تكون موصولة[٨٣]، وإذا كان سياق القرآن الكريم يرجح الشرطية لما تفيده من بلاغة من خلال الجزم فإن ذلك لا يلغي الوجه الثاني، لأن الترجيح لا يلغي الجواز، فالوجهان محتملان في مثل هذا التركيب. وقال تعالى: [الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ لاَ يُتْبِعُونَ مَا أَنفَقُوا مَنًّا وَلاَ أَذى لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ] [٨٤]. تحتمل " ما " أن تكون موصولة، أي الذي أنفقوه، وتحتمل المصدرية فتؤول وما بعدها بمصدر في موضع المفعول به، والتأويل: إنفاقهم[٨٥]. وقد تحتمل أن تكون موصولة أو موصوفة، كما في قوله تعالى: [فَيَتَعَلَّمُونَ مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ][٨٦]. يعود الضمير في " به " على "ما " وبذلك لا يمنع التركيب أن تكون موصولة، أو موصوفة بالجملة بعدها[٨٧].

ولا يختلف الأمر في " مَن " عندما تحتمل الشرطّية والموصولة. قال تعالى: [فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءكُمْ وَنِسَاءَنا ونِسَاءَكُمْ وَأَنْفُسَنَا وَأَنْفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَةَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ][٨٨]. تحتمل " من " في هذا التركيب أن تكون شرطّية، وأن تكون موصولة[٨٩]، وليس هناك دليل يلغي أحد الوجهين.

أمّا ما جاء في الأفعال فقد تحتمل صيغةٌ ما الدلالة على المضارع أو الماضي. قال تعالى: [إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلاَئِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ] [٩٠]. تحتمل صيغة الفعل في " توفّاهم " الجلالة على المضارع وعلى الماضي[٩١].

---

٨٣. مغني اللبيب ص٣٨٩.

٨٤. سورة البقرة، الآية " ٢٦٢".

٨٥. البحر المحيط ٣١٩/٢.

٨٦. سورة البقرة، الآية " ١٠٢ ".

٨٧. البحر المحيط ٥٠٠/١.

٨٨. سورة آل عمران، الآية "٦١".

٨٩. البحر المحيط ٥٠٢/٢.

٩٠. سورة النساء، الآية "٩٧".

وهناك بعض الصيغ التي تحتمل الدلالة على الفعل المضارع وعلى اسم الفاعل. قال تعالى: [قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ] (٩٢). تحتمل صيغة " آتيك " الدلالة على الفعل المضارع كما تحتمل الدلالة على اسم الفاعل(٩٣)، وليس هناك دليل يلغي الاحتمال في مثل هذا التركيب.

وتطالعنا أيضاً صيغ للأسماء تقع في تراكيب مطّردة، وتحتمل غير معنى، كما في قوله تعالى: [إِنْ تَجْتَنبوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُمْ مُدْخَلاً كَرِيماً] (٩٤). تحتمل صيغة " مدخلاً " الدلالة على اسم المكان كما تحتمل الدلالة على المصدر(٩٥)، وما من دليل يلغي التعدّد في مثل ذلك.

وهناك نوع آخر من التعدّد الذي تؤدّي إليه طبيعة اللغة، يرتبط بجمع اللغة. فقد يُستخدم مثلاً فعل ما متعدّياً بنفسه تارة وبحرف تارةً أخرى، وعندما تقع "أن" المصدرية وصلتها موقع ما يتعدّى إليه هذا الفعل تحتمل عندئذٍ أن تكون مفعولاً به، وتحتمل أن تكون على إسقاط الجارّ. من ذلك الفعل " سئم "، إذ ثبت أنّه يرد متعدّياً بنفسه كما يرد متعدّياً بحرف جر(٩٦). قال تعالى: [وَلاَ تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيراً أَوْ كَبِيراً إِلَى أَجَلِهِ](٩٧). يحتمل المصدر المؤوّل من " أن " وصلتها أن يكون على إسقاط الجارّ، ويحتمل أيضاً أن يكون موضع المفعول به(٩٨)، وذلك قياساً على الاستخدام المطرد الذي ثبت بالسماع.

---

٩١. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الكشاف ٥٨٧/١.

٩٢. سورة النمل، الآية "٣٩ ".

٩٣. الكشاف ٣٧٢/٣، والبحر المحيط ٧٢/٧.

٩٤. سورة النساء، الآية "٣١".

٩٥. الكشاف ٥٣٥/١.

٩٦. البحر المحيط ٣٦٧/٢.

٩٧. سورة البقرة، الآية " ٢٨٢ ".

٩٨. البحر المحيط ٣٦٧/٢.

ويأخذ هذا الأمر الذي يؤدّي إلى التعدّد شكلاً آخر، وذلك عندما يضيع الفيصل بين الفصحى والخصائص اللهجيّة، فإذا كان كلام العرب من المصادر الأساسية التي تمثّل الفصحى فإنّ الفيصل بين الخصائص اللهجيّة لبعض العرب وبين الفصحى قد يضيع، إذ تواجهنا أحياناً قضايا يطّرد استخدامها في الفصحى بوجهين مختلفين، ويعود هذا الاختلاف إلى القبائل التي جمعت منها اللغة. من ذلك مثلاً " ما " النافية الداخلة على الجملة الاسمية، فإنّه يطرد إعمالها إعمال "ليس " بشروط في الفصحى، وهذا الإعمال يعود في أصله إلى أهالي الحجاز، وفي الوقت نفسه يطرد إهمالها في الفصحى، وهو أمرٌ يعود إلى بني تميم. وعندما يأتي تركيب ليس فيه قرينة تحدّد الإعمال أو الإهمال تتعدّد الأوجه. قال تعالى: [وَما اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ](٩٩)يجوز في " ما " الإعمال على اللغة الحجازية. و " اللّه " اسمها، والباء حرف جرّ زائد، و " غافل " مجرور لفظاً منصوب محلاً على أنه خبر " ما " العاملة عمل " ليس "، ويجوز في " ما " الإهمال على اللغة التميميّة، و" اللّه " مبتدأ، والباء حرف جرّ زائد، و" غافل " مجرور لفظاً مرفوع محلاً على أنه الخبر(١٠٠)، والأمر نفسه يقع في أسلوب الاستثناء المنقطع إذا كان المستثنى متأخراً عن المستثنى منه وليس من جنسه. قال تعالى:[وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لاَ يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلاَّ أَمانيَّ وَإِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ] (١٠١). يجوز في " أمانّي " النّصب على الاستثناء، وهي لغة أهل الحجاز، ويجوز فيه الإتباع على البدل من "الكتاب"، وهي لغة تميم(١٠٢).

وربّما حدث التعدّد الذي تقتضيه طبيعة اللغة بسبب الغموض في معاني بعض الأدوات أحياناً، كأن يقال: زيدٌ أفضلُ من عمرو. ويروى عن سيبويه أنّ "من "، في مثل هذا تفيد ابتداء الارتفاع(١٠٣). وعن ابن مالك (ت٦٧٢هـ) أنه

٩٩. سورة البقرة، الآية " ٧٤ ".

١٠٠. البحر المحيط ٤٣٣/١.

١٠١. سورة البقرة، الآية "٧٨".

١٠٢. البحر المحيط ٤٤٢/١.

١٠٣. مغني اللبيب ص٤٢٣.

شكّك في هذا التحليل، لأنّ معناه غير واضح في " مـن " فجعلهـا للمجـاوزة، والتأويل: زيدٌ جاوز عمراً في الفضل(١٠٤). ثّم يشكّك ابن هشام في صحّة معنى المجاوزة (١٠٥). ولعل الغموض في معنى الأداة في مثل هذا التركيب هو الـذي دفع إلى التعدّد.

وقد يحدث التعدّد، لأنّ شبه الجملة يصلح للتعليق بغيـر عنصـرٍ نحـوي، فهناك تراكيب مطّردة يصعب فيها تحديد وجه معّين في تعليق شبه الجملة، مـن ذلك مثلاً قوله تعالى:[قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ](١٠٦). يسبق إلى الذّهن أن يتعلّق الجارّ والمجرور بصفة محذوفة لـ "بينة "، لكن هذا لا يلغي احتمـال التعليـق بالفعل جاء(١٠٧).

وربّما أدّت طبيعة اللغة إلى استخدام بعض الألفاظ التـي يصـعب تحديـد معناها المعجمي بدّقة، فيقود إلى تعدّد في التحليل النّحوي، قال تعـالى:[قَـالُوا سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا] (١٠٨). قد يكون معنى سبحانك هو " تنزيهـك "، فتكون الإضافة من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، وقد يكون المعنى " تنزّهت" وهو بذلك من إضافة المصدر إلى فاعله(١٠٩)، وليس هناك قرينة تحـدّد معنـى معجمياً معيناً لتلغي التعدّد في التحليل النّحوي.

وتواجهنا اللغة أحياناً بألفاظ تصلح لأن تكون مفردة، وتصـلح لأن تكـون مركّبة، فيؤدّي هذا الأمر إلى تعدّد في التحليل النّحوي، ومن ذلك " ماذا " عندما تأتي في بعض العبارات المطّردة. قال تعالى:[وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَيَقُولُـونَ مَـاذَا

١٠٤. المصدر نفسه.

١٠٥. المصدر نفسه.

١٠٦. سورة الأعراف، الآية "٨٥".

١٠٧. البحر المحيط٤/٣٣١.

١٠٨. سورة البقرة، الآية "٣٢".

١٠٩. البحر المحيط ٢٩٧/١.

أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلاً يُضِلُّ بِهِ كَثِيراً وَيَهْدِي بِهِ كَثِيراً] (١١٠). يجوز في مثل هذا التركيب أينما وقع أن تكون " ماذا " مؤلفة من كلمتين، أي ما الذي؟ إحداهما مبتدأ والأخرى خبر، وجملة " أراد الله " صلة لـ " ذا " الموصولة والعائد محذوف، لأن فيه شروط جواز الحذف، والتقدير: ما الذي أراده الله؟ ويجوز فيها أن تكون كلمة واحدة تفيد الاستفهام بمعنى " أي شيء؟" فتعرب مفعولاً به مقدّماً للفعل أراد، أي أيَّ شيء أراد الله بهذا؟ وهذا التعدّد في " ماذا " متعارف عند جمهور النّحاة(١١١)، لأنه ما من قرينة تلغيه وتحدّد وجهاً معيناً.

وربما طالعتنا اللغة بألفاظ لا يعرف أصلها، إذ تحتمل أن تكون دخيلة وتحتمل أن تكون عربية، فيقود هذا الأمر أحياناً إلى تعدّد في التحليل النّحوي. قال تعالى:[وَإِسْمَاعِيلَ وَالْيَسَعَ وَيُونُسَ وَلُوطاً] (١١٢). اختلف في "اليسع " أهو عربي أم لا؟ فقيل" إنه عربي، وبذلك تحتمل " أل " وجهين، فبعضهم يرى أنّه مضارع سمّي به العلم، ولا ضمير فيه، فأعراب ثم نُكّر وعُرّف بـ " أل "، وعلى هذا التفسير تكون " أل " زائدة غير لازمة(١١٣). وبعضهم الآخر يرى أنّه فعل مضارع سمّي به العلم عن طريق النقل كما في " يزيد " ثّم أدخلت فيه " أل" زائدة شذوذاً، ولزمت كما لزمت في " الآن " فأصبحت زائدة لازمة(١١٤). ومن قال: إنه أعجمي رأى أن " أل " زائدة لازمة شذوذاً، لأن الأسماء الأعجمية لم يجىء منها شيء فيه " أل " التعريف(١١٥).

وهكذا يتبين لنا مما تقدم أنّ التعدّد الذي تقتضيه طبيعة اللغة هو التعدّد الذي يحدث في عبارات لم تخرج على القاعدة، ولم يؤثر فيه أمرٌ سياقي، وتبين أيضاً أن طبيعة اللغة تجعل هذا التعدّد يتجلّى بمظاهر متنوّعة، لعل أبرزها أن يصلح

---

١١٠. سورة البقرة، الآية "٢٦".

١١١. البحر المحيط ٢٦٩/١.

١١٢. سورة الأنعام، الآية "٨٦".

١١٣. البحر المحيط ١٧٨/٤، وللمزيد انظر: المصدر نفسه٣٣٦/٨.

١١٤. المصدر نفسه ١٧٨/٤.

١١٥. المصدر نفسه.

الموقع الذي يشغله لفظ ما لغير وجه، وأن تتعدّد معـــاني المبنـــى، وأن يحـــدث بسبب جمع اللغة، وللغموض في معاني بعض الأدوات، ولصلاحية شبه الجملـــة للتعليق بغير عنصر، ولتعدّد المعنـــى المعجمـــي، ولصـــلاحية اللفـــظ للإفـــراد والتركيب، ولعدم معرفة أصل اللفظ.

ثالثاً - المعنى:

تسهم عناصر معقّدة في تشكل المعنى عند المتلقي، والملاحظ أن قسماً منها نسبي يتفاوت ويختلف من إنسان إلى آخر، لأن المعنى يختلف باختلاف النـــاس، من حيث الوضوح والغموض، أو الاستحسان والاستهجان، أو ما يحـــدث مـــن خلاف في تحديد المعنى، كما في تحديد مقصد النص، وفي تعدّد المعاني التـــي يحتملها، أو التعدّد والخلاف في فهم المعاني الجزئية في بعض العبـــارات التـــي تُشكّل النص، أو غير ذلك.

وتتنوع تلك العناصر التي تشكل المعنى، فيتمثّل جزءٌ منها بأمورٍ خارجّيـــة يراعيها صاحب الكلام الذي يبتغي هدفاً ما، وهي جملة القرائن المحيطة بالحدث اللغوي، والتي تعرف بالمقام، ويتعلّق جزءٌ منها بالمتحدّث، وذلـــك مـــن خـــلال الصورة الصوتية التي يؤدّى بها الكلام والتي تسمّى بالأداء، وهناك مـــا يتصـــل بالعناصر التي تُشكّل الكلام، فإن هذا الأخير عندما يجّرد من معطيـــات المقـــام يبقى له معنيً ما تولّده العناصر التي يتشكل منها، وهي مـــا يعـــرف بالســـياق اللغوي، ويطلق على هذه العناصر السابقة جمعياً مصطلح السياق.

وإذا كان المتلقي يتميّز من سواه بجبلّته التي فطره الله سبحانه وتعالى عليها وبتكوينه الثقافي فقد يصعب أن يكون معنى الكلام واحداً عند كلّ الناس، ولعـــلّ

الأمر يزداد تعقيداً كلما سما الأسلوب بأدبيته، فمن المعروف أن هـذا الأسـلوب يعتمد الحذف والاتساع والفصل والتقديم والتأخير وغير ذلك من ظـواهر يُلجـأ إليها، فتتوسّع دائرة الاحتمالات في فهم المعنى وتتلوّن.

ويظهر أنّ الأمور التي أدّت إلى تعدد فهم المعنى وانعكست على التحليـل النّحوي تتمثّل بمعطيات سياقية غائبـة، مثـل غيـاب المقـام وغيـاب الأداء، وبمعطيات سياقية حاضرة مستمدة مما يشكّل المعنـى، كمـا تتمثـل بظـاهرة الغموض التي تطالعنا أحياناً في عبارات النّحاة من غيـر أن يقصـدوها، وفـي بعض الألفاظ المشكلة، كالتي وردت في القرآن الكريم.

إذا كان المقام عنصراً أساسياً من عناصر المعنى فإنّ غيابـه قـد يجعـل المعنى الدلالي محتملاً لغير وجه، مما يؤدّي إلى تعدّد في فهم المعاني النحويـة وتحليلها، والمراد بالمقام جملة العناصر غير اللغويّة المكوّنة للموقف الكلامـي، وبذلك يشمل مجموع الناس المشاركين في الكلام، من حيـث الجـنس والعمـر والألفة والتربية والانتماء الاجتماعي والثقافي والمهني، والإيحاءات والإشـارات العضويّة التي تصدر منهم وغير ذلك، كما يشمل ظروف الزمان والمكان التـي يؤدّى بها الحدث الكلامي وتؤثر فيه، والعلاقات الاجتماعية والسياسية والدينيـة والتاريخية والفكرية، والعناصرالأخرى التي تؤثر في الكلام وفي غايتـه[١١٦]. فالمقام إذن هو كلّ العناصر الخارجيّة التي تحيط بالكلام وتشارك السياق اللغوي في تكوين المعنى الدلالي.

١١٦. حسّان، تمام: اللغة العربية معناها ومبناها ص٣٣٧، ٣٥١، ٣٥٢وحـاطوم، أحمـد: كتـاب الإعراب ص٢١٩-٢٢٢، عبد اللطيف، محمد حماسة: النحو والدلالة ص١١٤-١١٥، وعيسـى، فارس: المعنى اللغوي وعناصر تحديده في ضوء الـدرس اللغـوي الحـديث، مجلـة البلقـاء مج١،ع٢ص١٢٩، ١٣٢ونهر، هادي: علم اللغة الاجتماعي عند العرب ص١٨٨-١٨٩.ويطلـق عليه صلاح فضل مصطلح " السياق الخارجي "، انظر: فضل، صلاح: من الوجهة الإحصائية في الدراسة الأسلوبية، مجلة فصول مج٤ ع١ص١٣٠.

ويبدو أنه " كلما كان وصف المقام أكثر تفصيلاً كان المعنى الدلالي أكثر وضوحاً"[١١٧]، لذلك فإن غياب المقام يؤثر في فهم الكلام، فيجعله يحتمل غير معنى، وقد ينعكس التعدّد في فهم الكلام على عملية التحليل النحوي بتعدّد الأوجه.

ويتنوّع غياب المقام الذي يؤثر في فهم المعنى، ويؤدّي إلى تعدّد في التحليل النحوي، فقد يفتقر الكلام إلى بعض العناصر الحالية، ومن ثَمَّ يقود هذا الأمر إلى تعدّد في فهم النّص، لينعكس هذا الفهم على عمليّة التحليل النحوي. ومن ذلك مثلاً ما وقف عنده الزمخشري (٥٣٨هـ)، وهو أنّ الُمغِيرَة بن شُعْبَةَ (ت٥٠هـ) قد رأى عُرْوَةَ بن مسعود(ت٩هـ) عَمَّه يكلّم النبي صلى الله عليه وسلم، ويتناول لحيته يمسّها، فقال: أمسك يدك عن لحية رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل ألاّ تصل إليك.فقال عروةُ: يا غُدَر! وهل غسلت رأسك من غدرتك إلاّ بالأمس[١١٨]؟فالعناصر الحالية المحيطة بالمقال التي ارتسمت على وجه المغيرة وعلى حركاته وغيره غائبة، لذلك يتعدّد فهم المعنى، فلا يُعرف أهو يهدّد عمه بقطع يده، أي قبل ألاّ تصل يدك إليك؟ أم ينهاه بأدب،ويقصد: قبل ألاّ تصل لحية الرسول صلى الله عليه وسلم إليك، لأنه سيحول بين يد عمّه وبينها؟ إذن غياب العناصر الحالية التي تحيط بالكلام جعلت المعنى يتعدّد، وإن كان الفهم الأوّل أقوى، وهذا التعدّد في فهم المعنى ينعكس على عملية التحليل النّحوي، لأنه يتعلّق بعنصر من عناصره، وهو فاعل الفعل " تصل "، مما جعل الزمخشري لا يجزم بعود الضمير على " اليد "، فرأى أنّه يجوز أن يعود على "اللحية"[١١٩]، بناء على فهم المعنى الذي تعدّد لغياب المقام.

وربّما غابت عناصر المقام كلها، وأدت إلى غموض المراد من الكلام، وهو ما يطالعنا أحياناً في بعض الشّواهد التي يتعدّد تفسيرها وتحليلها نحويّاً

---

١١٧. المعنى اللغوي وعناصر تحديده ص١٣٢.

١١٨. الزمخشري، جار الله محمود بن عمر: الفائق في غريب الحديث٢/٢١٤.

١١٩. المصدر نفسه.

بحسب الفهم الذي يرتئيه الدارس، من ذلك مثلاً العبارة التالية: كَذَبَ عَليكَ الحجَّ. يورد الزمخشري رأياً لابن السّراج(ت٣١٦هـ)، فيفترض هذا الأخير مقاماً يقتضي وجود ثلاثة أشخاص جرى بينهم الحوار على الشكل التالي: شخص يريد الحج فسأل شخصاً ما عنه، أو تدخّل هذا الشخص من غير سؤال، فذّم الحج، فقال الثالث: كذبَ.يريد من يذمّ الحج، ثم توجّه إلى الراغب في الحجّ، فقال له: عليك الحجَّ[١٢٠]. وبذلك يخرّج أبو بكر العبارة، بأن جعلها عبارتين، الأولى من فعل وفاعل يعود على من ذمّ الحجّ، والثانية من اسم فعل ومفعول به لإغراء من يودّ الحجّ[١٢١]. غير أن الزمخشري يرجّح تخريجاً آخر من غير أن يفترض مقاماً ما، وهو أنّ المراد بالكذب الترغيب، كقولك العرب: كذبته نفسه إذا منّته بالأماني وخيّلت إليه من الآمال ما لا يكاد يكون، لذلك فمعنى " كذب " هو ليرغبك، تخريج العبارة بأن يكون فاعل " كذب " ضميراً يعود على الحجّ، والمراد ترغيب المخاطب، ثم يأتي أسلوب الإغراء المؤلّف من اسم الفعل "عليك " ومفعوله " الحجّ "[١٢٢].

وربمّا لم يكن للعبارة مقام، فيؤدّي افتقارها إليه إلى تعدّد في تحليلها النّحوي، ويتجلى هذا الأمر في الأمثلة التي يعرضها النّحاة لقواعد التنظير التعليميّة، وفي المسائل التي يولّدها القياس. يمثّل أبو حيان للقواعد التي يعرضها ببعض العبارات التي تفتقر إلى المقام، ففي أثناء حديثه عن التمييز المحوّل مثلاً يذكر عبارة " كَرُمَ زيدٌ أباً " ثُمَّ يبين أنها تحتمل أن يكون زيدٌ هو الأب، أي بمعنى: ما أكرمه من أبٍ، وتحتمل أن المراد: كرم أبو زيدٍ، وليس زيداً، ثم يعقب بأنّ التمييز في الوجه الأوّل غير منقولٍ من فاعل، فيجوز دخول " من " عليه، بخلاف الوجه الثاني الذي يبدو فيه التمييز منقولاً من فاعل[١٢٣]. ولا شك أن أمثال هذه العبارات لا يتحدث بها المتكلم العادي من غير أن يستخدمها في

١٢٠. المصدر نفسه، ٢/٤٠٢-٤٠٣.

١٢١. المصدر نفسه.

١٢٢. الفائق في غريب الحديث٢/٤٠٢-٤٠٣.

١٢٣. ارتشاف الضرَب من لسان العرب ٢/٣٧٩-٣٨٠.

مقام ما، ولكنّ النحوي يأتي بها من غير مقام لغاية الشرح والتوضيح لما يعرض من قواعد.

كما يذكر أبو حيان بعض المسائل التي ولّدها القياس، وتفتقر إلى المقام من ذلك أن نقول: زيدٌ عمروٌ ضاربه هو. إذا حذفت " هو " احتمل أن يكون الضمير المجرور في " ضاربه " عائداً على " زيد "، فيكون الضارب عمراً، واحتمل أن يعود على " عمرو " ليكون الضارب زيداً[١٢٤]. فالمعنى، كما نرى، مرهون بالمقام الذي تفتقر إليه العبارة. وبذلك يتبين لنا أن غياب بعض عناصر المقام أو غياب المقام كاملاً يؤدّي إلى تعدّد في فهم الكلام الذي ينعكس على عملية التحليل النحوي.

ولعلّ الأمر نفسه يؤدّي إليه غياب الأداء، أي الصورة الصوتّية التي يؤدّى بها الحدث الكلامي، إذ يقود هذا الأمر إلى تعدّد في فهم المعنى الذي ينعكس على عملية التحليل النحوي، ويتجلّى الأداء في ظاهرتين معروفتين، ظاهرة التنغيم وظاهرة الوصل والوقف.

يعرَّف التنغيم بأنه تنوع الأصوات الذي يحدثه اهتزاز الوترين الصوتيين، تنوعٌ يتراوح بين الارتفاع والانخفاض في أثناء النطق، وينظم علاقة الوحدات اللغوية المتتابعة في السياق ليشكل الإطار الصوتي الذي تقال به الجملة[١٢٥]. وينقسم التنغيم إلى مرتفع ومستوٍ ومنخفض، ويبدو أن كل أسلوب نحوي يتفق مع نمط تنغيمي خاص به، فما يقتضيه أسلوب الاستفهام مثلاً يختلف عما يقتضيه أسلوب التوكيد، وكذلك في أسلوب النفي وأسلوب الندبة والتفجع وغيره [١٢٦]. فالأساليب النحوية يقع كلٌّ منها في نمط تنغيمي خاص به[١٢٧].

١٢٤. منهج السالك ص ٤١.

١٢٥. أحمد، نوزاد حسن: المنهج الوصفي في كتاب سيبويه ص٢٦٠-٢٦١.

١٢٦. حسان، تمام: مناهج البحث في اللغة ص١٦٥، واللغة العربية معناها ومبناها ص٢٢٦، وللمزيد: عمايرة، خليل أحمد: في نحو اللغة وتراكيبها ص١٧٣.

١٢٧. اللغة االعربية معناها ومبناها ص٤٧، ٢٩٧.

ويظهر أن للتنغيم أثراً مهماً في تشكل المعنى الدّلالي والنحــوي للعبــارة، حتى إن المستمع يستطيع أن يفهم مراد المتحدث اعتماداً على التنغــيم[١٢٨]، وإن أهدر بعض القرائن المقالية، كأن يحــذف أداة الاســتفهام أو الصــفة أو ســوى ذلك [١٢٩].

وإذا كان التنغيم خاصاً باللغة المنطوقة[١٣٠]فهناك أمثلــة كثيــرة مكتوبــة، ويجيز رسمها الكتابي أن تؤدَّى بغير صورة صوتية، فيتوقف معناهــا الــدلالي والنحوي على طبيعة أدائها، وبذلك تتعدد أوجه التحليل لهذه الأمثلة بتعدد أنمــاط الأداء التي تحتملها، ولعل من أبرز الأمثلة التي يتجلي فيها الأمر بوضوح تلــك التي تحتمل الاستفهام والإخبار، فالتدرج التنغيمي الذي يقتضيه أسلوب الاستفهام يختلف عما يقتضيه أسلوب الإخبار، ومما جاء في ذلك بعــض الأمثلــة التــي تحتمل تقدير همزة الاستفهام وعدمه. قال تعالى:[فَالْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ آيةً] [١٣١].

يتوقف معنى الآية الكريمة وتحليلها النحوي على طبيعة أدائها، إذ يحتمــل أن يبدأ التدرج التنغيمي مرتفعاً، ثم يتدرج بين الانخفاض والارتفاع فيفيد بــذلك معنى الاستفهام، ويحتمل أن يبدأ بنغمة مستوية فيفيــد الإخبــار، ولأن معطيــات السياق تسمح بتعدد الأداء الغائب ذهب بعضهم إلى أن الأسلوب استفهام، وهنــاك همزة استفهام مقدرة، أي أفاليوم ننجيك ...؟فافترض الاحتمال الأول، وذهب أبــو

١٢٨. المنهج الوصفي في كتاب سيبويه ص ٤٧، ٢٦٢- ٢٦٣، والحموز، عبد الفتاح أحمد: مواضع اللبس في العربية و أمن لبسها، مجلة جامعة مؤته للبحوث والدراسات مج٢ع١،ص٥٣-٥٤.

١٢٩. اللغة العربية معناها ومبناها ص٢٢٧، والمنهج الوصفي فــي كتــاب ســيبويه ص٤٧،٢٩٧، والنحو والدلالة ص ١١٨، ١٢٣- ١٢٦.

١٣٠. المنهج الوصفي في كتاب سيبويه ص٢٦٢-٢٦٣، واللغة العربية معناها ومبناها٢٢٨.

١٣١. سورة يونس، الآية "٩٢ ".

حيان إلى أن الأسلوب إخبار، ولا حاجة لتقدير همزة استفهام[١٣٢]، فأخذ بالاحتمال الثاني من طبيعة الأداء. ومنه قول عمر بن أبي ربيعة[١٣٣].

ثُمَّ قَالُوا: تُحِبُّها، قُلْتُ: بَهْراً		عَدَدَ الرَّمْلِ والحَصَى والتُّرابِ

يتوقف معنى جملة " تحبها " على طبيعة الأداء، فقد يكون التدرج التنغيمي مرتفعاً، ثم يتراوح بين الارتفاع والانخفاض، فيفيد الاستفهام الذي يقتضي تقدير همزة في بداية الجملة، وقد يكون التدرج التنغيمي مستوياً فيفيد الإخبار[١٣٤].

ولا يحدث هذا الأمر في تقدير الهمزة أو عدم تقديرها فقط، وإنما يقع في أنماط تركيبية أخرى تحتمل الاستفهام والإخبار، من ذلك الجمل التي تتصدرها أدوات تحتمل مبانيها الاستفهام وغيره. ومن ذلك " ما "، كما في قوله تعالى:[قَالَتْ مَا جَزَاءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوءاً إِلاَّ أَنْ يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ] [١٣٥]. تحتمل "ما " النفي، فيكون الأسلوب إخباراً مؤكداً بالحصر، وتحتمل الاستفهام لغير العاقل فيكون الأسلوب استفهاماً[١٣٦]. ولا يخفى أن التدرج التنغيمي الذي يقتضيه الأسلوب الأول يختلف عما عليه الأسلوب الثاني الذي يقتضي تغيرات ملحوظة تتراوح بين الارتفاع والانخفاض بخلاف الأول.

وهناك مبان أخرى لأدوات تحتمل مبانيها الاستفهام وغيره، مثل الهمزة [١٣٧]، و"كم"[١٣٨] و" ماذا "[١٣٩] و" مَن "[١٤٠]، تتوقف معرفة المعنى فيها على طبيعة الأداء، ونكتفي بما ذكرناه عن " ما " من هذا النوع.

---

١٣٢. البحر المحيط٥/١٨٨.

١٣٣. ديوانه ص٤٢٣، وروايته في الديوان: عدد النجم والبهر: الغلبة.

١٣٤. مغني اللبيب ص٢٠.

١٣٥. سورة يوسف، الآية "٢٥".

١٣٦. الكشاف ٢/٤٣٣..

١٣٧. انظر مثلاً: مغني اللبيب ص١٨.

١٣٨. انظر مثلاً: البحر المحيط٢/١٣٦، ومغني اللبيب ص٢٤٥.

وربما كان تعدد الأداء سبباً في أن يجعل الأسلوب يحتمل الإخبار والدعاء. قال تعالى:[قَالَ رَجُلَانِ مِنَ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمَا ادْخُلُوا عَلَيْهِمُ الْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَالِبُونَ] (١٤١). تحتمل جملة " أنعم الله عليهما " الاعتراض بين القول ومقوله " ادخلوا..."، والصفة لـ " رجلان "(١٤٢)، والحالية من "رجلان" لأنه وصف، وذلك بتقدير " قد " في صدر الجملة(١٤٣)، وإذا كانت وصفية أو حالية فالأسلوب يبقى إخباراً، أما إذا كانت معترضة فالأسلوب يتحول من الإخبار إلى الدعاء(١٤٤) الذي تفيده الجملة المذكورة. ويبدو أن الأداء الذي يقتضيه الوجه الأول والثاني يتجلى بتدرجات تنغيمية مستوية ومتواصلة، بخلاف الوجه الثالث الذي يقتضي تدرجاً تنغيميّاً مستوياً حتى المقطع " فونَ " من " يخافون "، ثم مرتفعاً واقعاً على " أنعم " بعد فاصلة تنغيمية بسيطة.

وربما أسهمت طبيعة الأداء في تعدد الأوجه للشواهد التي قد تخرج على القاعدة، فهناك بعض الشواهد التي تحتمل في ظاهرها خروجاً على القاعدة، وطبيعة أدائها غائبة، مما يجعل بعض النحاة يفترض أداءً معيناً غير الذي يتبادر إلى الذهن، ليجعل التوجيه في اعتقاده أقوى من غيره. قال تعالى:[إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ أَوْ جَاؤوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَنْ يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ] (١٤٥).ذهب الجمهور إلى أن جملة " حصرت صدورهم " تفيد أسلوب الإخبار(١٤٦)، ووقعت موقع الحال(١٤٧)، غير أن منهم من يرى أن الجملة الفعلية إذا وقعت موقع الحال، وكان فعلها ماضياً لابد أن تسبقه " قد "،

---

١٣٩. انظر مثلاً: البحر المحيط٧/١٨٠.

١٤٠. انظراً مثلاً: الكشاف١/ ٢٢٦- ٢٢٧، ٢/ ٦٥، ٣٩٩- ٤٠٠، والبحر المحيط١/٥٩٨، ٤/ ٢٢٩، ٥/ ٢٥٧.

١٤١. سورة المائدة، الآية " ٢٣ ".

١٤٢. الكشاف ١/٦٥٤.

١٤٣. البحر المحيط ٣/٤٧٠.

١٤٤. مغني اللبيب ص٥٦٢.

١٤٥. سورة النساء، الآية "٩٠ " .

١٤٦. مغني اللبيب ص٥٦٢.

١٤٧. البحر المحيط٣/٣٣٠.

وإذا لم تكن ظاهرة فهي مقدرة، لذلك قدروا " قد " قبل الجملة، وجعلوها حالاً من فاعل " جاء "[١٤٨]، وذهب بعضهم إلى أنه لا حاجة إلى تقدير " قد "، فجعلوا الجملة صفة لموصوف محذوف هو الحال، أي جاؤوكم قوماً حصرت صدورهم[١٤٩]، لأن إضمار الاسم عندهم أسهل من إضمار حرف المعنى[١٥٠]، وذهب بعضهم إلى أن جعل الجملة في موضع جر، صفة لـ " قوم" في " يصلون إلى قومٍ " ، ليبعد الكلام عن التقدير[١٥١]، وذهب آخرون إلى أن الجملة بدل اشتمال من جملة " جاؤوكم "، لأن المجيء مشتمل على الحصر[١٥٢]. وعندما اعتقد المبرد أن الجملة الفعلية التي يتصدرها فعل ماض لا تقع حالاً استعان بالتنغيم ليوجه التركيب بعيداً عما سبق، إذ رأى أن الجملة الفعلية تفيد الدعاء[١٥٣]، وبذلك جعلها استئنافية. ولعل طبيعة الأداء هي التي أعانته على هذا التوجيه، لأن أسلوب الدعاء الذي افترضته يقتضي تنغيماً يختلف عنه في أسلوب الإخبار الذي انبنت عليه الأوجه السابقة.

ولا يحدث هذا الأمر في أساليب القرآن الكريم فقط، وإنما يحدث في الشعر أيضاً. قال أحدهم[١٥٤]:

إنَّ الكَرِيمَ وأبيك يَعْتَمِلْ   إِن لَّمْ يَجِدْ يَوْماً عَلَى مَنْ يَتَّكِلْ

يبدو التركيب في الجملة الشرطية غريباً، فقد جاء جار ومجرور من غير أن يأتي مفعول " يجد " ثم إن علاقة التوارد بين الألفاظ تبدو غير مريحة، ولا

---

١٤٨. الكشاف ٥٧٩/١.

١٤٩. المصدر نفسه.

١٥٠. مغني اللبيب ص٥٦٢.

١٥١. المصدر نفسه.

١٥٢. المصدر نفسه.

١٥٣. المقتضب ١٢٤/٤-١٢٥.

١٥٤. يعتمل: يعمل لنفسه، ويحترف لإقامة العيش، والشاهد من الخمسين التي لا يعرف قائلها، انظر: كتاب سيبويه ٨١/٣.

بد من تأويل حتى يستقيم الكلام، فقد ذكر ابن هشام عن ابن جني أن تركيب "على من يتكل " يدخل ضمن متعلقات جملة الشرط، والأصل إن لم يجد يوماً من يتكل عليه. فحذف الجار والمجرور المتعلقان بالفعل " يتكل "، وزيدت "على" قبل الاسم الموصول " من " الذي وقع مفعولاً به للفعل " يجد "[١٥٥]. غير أن بعضهم لم يرق له هذا التوجيه، فاستعان بالأداء الغائب، ليجعل أسلوب الشرط انتهى عند " يوماً "، وقدر مفعولاً به للفعل " يجد "، أي إن لم يجد يوماً شيئاً، ثم أُبتدئ بأسلوب استفهام مستقل عما قبله، والجملة استئنافية[١٥٦]. وبذلك نرى أن الأداء في التوجيه الأول غيره في الثاني.

وقد يذهب القارئ أحياناً إلى قطع السلسلة النطقيّة، ليحول أداء الكلام إلى دفعات كلامية منفصل بعضها عن بعضها الآخر، وهو في أثناء ذلك يقطع لفظاً ما عما بعده، ثم يبدأ بلفظٍ جديد، وهذا القطع هو ما يسمى بالوقف[١٥٧]. وإذا لم يفعل القارئ ذلك فإنه يجعل السلسلة النطقية ذات دفعة كلامية واحدة من غير قطع، وهذا ما يعرف بالوصل. وما من شك في أن هذا الأمر له صلة وثيقة بالمعنى، إذ نرى أن معرفة مواطن الوقف وأحكامه تشكل أمراً مهماً في فهم القرآن الكريم[١٥٨]، وما تقسيمهم الوقف إلى تام وحسن وكاف وقبيح[١٥٩] إلا دليل على ذلك، مما جعل الأئمة يحضون على تعلمه، حتى ساوى بعضهم بين تعلم أحكام الوقف وقضاياه وبين تعلم القرآن الكريم[١٦٠].

---

١٥٥. مغني اللبيب ص١٩٢.

١٥٦. المصدر نفسه.

١٥٧. اللغة العربية معناها ومبناها ص٢٧٠.

١٥٨. الأشموني، علي بن محمد: منار الهدى في بيان الوقف والابتداء ص٨.

١٥٩. ابن الجزري، أبو الخير محمد: النشر في القراءات العشر ١/٢٢٤-٢٣٠، وللمزيد انظر: ظاهرة الإعراب في النحو العربي ص٢٠٩، ومواضع اللبس في العربية وأمن لبسها ص٣٩ .

١٦٠. السيوطي، جلال الدين: الإتقان في علوم القرآن ١/٢٨٤-٢٨٦، ومنار الهدى في بيان الوقف والابتداء ص٩-١٠، وللمزيد انظر: الجنابي، أحمد نصيف: نظرية النظم النحوي، مجلة كلية الشريعة واللغة العربية ع١ص٢٩٨، ومفتي، خديجة أحمد: نحو القراء الكوفيين ص٢٩٢-٢٩٤.

وإذا كان هذا الأمر يتصل بالمعنى فلا تخفى صلته بالنحو أيضاً، لأن هذا الأخير جزءٌ من المعنى، لذلك نرى كثيراً من قضايا الوقف ترتبط بالنحو، مثل المواضع التي يمتنع فيها وغيره[١٦١]، ويزداد الأمر وضوحاً إذا ما تأملنا فيما يعكسه الوصل والوقف على التحليل النحوي[١٦٢]، لأن أداء الكلام في حال الوصول قد يقتضي تحليلاً نحويّاً يختلف عنه في حال قطع أجزائه إلى دفعات كلامية منفصل بعضها عن بعضها الآخر. قال تعالى:[آمَنَ الرَّسُوْلُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَ الْمُؤْمِنُون كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لاَ نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ] [١٦٣]. يتوقف تحليل بعض العناصر النحوية في الآية الكريمة على كيفية الأداء، فإذا كان ذا سلسلة نطقية واحدة فإن الواو قبل " المؤمنون " عاطفة، والاسم بعدها معطوف على " رسول " والضمير في " كلٌّ " الذي ناب عنه التنوين عائدٌ على " الرسول" و "المؤمنون "، وإذا كان الأداء ذا دفعتين نطقيتين تنتهي الأولى بلفظ " ربه " وتبدأ الثانية بـ " والمؤمنون : فإن الواو التي سبق تحليلها في حال الوصل تكون ههنا حرف استئناف، والاسم بعدها مبتدأ، والضمير في " كلٌّ " الذي ناب عنه التنوين عائد على " المؤمنون " فقط[١٦٤]. وبذلك يبقى الأمر مرهوناً بطبيعة الأداء، ويبدو أن الأمثلة على قضايا الوصل والوقف التي تقود إلى تعدد الأوجه كثيرة جدّاً[١٦٥].

---

١٦١. النشر في القراءات العشر ٢٢٥/١.

١٦٢. العلولا، منيرة بنت سليمان: الإعراب وأثره في ضبط المعنى ص٢١٠، وللمزيد انظر: عمر، أحمد خطاب: القراءات والوقف والابتداء، مجلة المجمع العلمي العراقي ج١مج٣٩ص٢٠٤-٢٠٥ وظاهرة الإعراب في النحو العربي ص٢٠٩-٢١١.

١٦٣. سورة البقرة، الآية "٢٨٥".

١٦٤. الكشاف ٣٥٨/١.

١٦٥. انظر مثلاً: المصدر نفسه ١/ ٧٦، ٧٨، ٣٦٦، ٤٦٥، ١٣/٢، ٣٣٧، ٤٣٠، ٤٨٥، ٤٩٤، ٦٤١، ٢٦٨/٣، ٣٤٣، ٣٥٢، ٣٦٦-٣٦٧، ٤٤٦، ٣٤٩/٤، ٦٦٠، ٦٧٢، والبحر المحيط ١٥٩/١-١٦٠، ٣٧٨/٢- ٣٧٩، ٣٩٣- ٣٩٤، ٤٠٠- ٤٠١، ٤١٧/٢، ١١٦/٣، ٤٦٠/٥،

وربما أسهمت طبيعة الأداء الذي يتحمل الوصل والوقف في تعدد الأوجه لبعض الشواهد التي تحتمل الخروج على القاعدة في ظاهرها. قال تعالى:[وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَـذِهِ ٱلْأَنْهَارُ تَجْرِي مِنْ تَحْتِي أَفَلاَ تُبْصِرُون. أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ] (١٦٦). يرى سيبويه أن "أم" منقطعة(١٦٧)، وبذلك يكون الأداء ذا سلسلتين نطقيتين، تنتهي الأولى بنهاية الآية الأولى، وتبدأ الثانية بـ "أم". وذهب بعضهم إلى أن ظاهر الكلام لا يقتضي الانقطاع، وعليه تكون "أم" زائدة(١٦٨)، من حيث المعنى، والأداء ذو سلسلة نطقية واحدة، أي أفلا تبصرون أنا خير...؟ وذهب الزمخشري إلى أن "أم" متصلة، ولكي يسوغ عطف الجملة الاسمية " أنا خير" على الفعلية "تبصرون" رأى أن المعنى: أفلا تبصرون أم تبصرون..؟ لأنهم إذا قالوا له: أنت خير فهم عنده بصراء، فوضع السبب " أنا خيرٌ " موضع المسبب "تبصرون"(١٦٩). وذهب بعضهم إلى أن " أم" متصلة، ولكن الأداء لا يقتضي وصلاً، وإنما يوقف على "أم" المتصلة، ومعطوفها محذوف، والتأويل: أم تبصرون، ثم يبتدأ بـ " أنا خير "(١٧٠)

وهكذا يتبين مما تقدم أن غياب الأداء بظاهرتيه المعروفتين، التنغيم والوصل والوقف، كان من أسباب التعدد في المعنى وفي التحليل النحوى، شأنه في ذلك شأن غياب المقام.

وقد يتعدد المعنى الذي يؤثر في التحليل النحوي بسبب معطيات السياق الحاضرة والملتمسة مما يشكل المعنى، والمراد بالسياق ههنا هو كل ما يحيط

٦٣/٦-٦٤، ٦٥/٧-٦٦ ومغني اللبيب ص ٣٤- ٣٥، ٦٤- ٦٥، ٣١٧- ٣١٨، ٣٢٥- ٣٢٩، ٥٠٣، ٧١٣- ٧١٤، ٧٢٠، ٨٥٩.

١٦٦. سورة الزخرف، الآية "٥١-٥٢".

١٦٧. كتاب سيبويه ١٧٢/٣-١٧٣.

١٦٨. الأخفش الأوسط، سعيد بن مسعدة: معاني القرآن٢٩/١-٣٠.

١٦٩. الكشاف٢٦٠/٤.

١٧٠. مغني اللبيب ص٦٤.

ويؤثر في فهمها وتحليلها، ويتمثل بعناصر غير لغوية تعرف بالمقام وعناصر لغوية تعرف بالسياق اللغوي، فهو مجموع القرائن التي تدل على المعنى والمكونة من معطيات المقام والسياق اللغوي(١٧١).

وربما تعدد المعنى بسبب بعض المعطيات السياقية، وكأن يحدث نتيجة لمعطيات المقام قال تعالى:[وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شيءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ] (١٧٢). يحتمل من خلال معطيات المقام التاريخية أن المراد عامة اليهود وعامة النصارى، وهو إخبار عن الأمم السالفة التي كذبت بالرسل والكتب من قبل، وبذلك تكون "أل" جنسية (١٧٣) للاستغراق العرفي. وقيل: إن المراد يهود المدينة ونصارى نجران الذين تماروا عند الرسول صلى الله عليه وسلم وتسابّوا، فأنكرت يهود المدينة الإنجيل ونبوّة عيسى عليه السلام، وأنكرت نصارى نجران التوراة ونبوة موسى عليه السلام، وبذلك يتبين من معطيات العناصر الحالية أن هذا الأمر هو حكاية حال في زمن الرسول صلى الله عليه وسلم(١٧٤). وقيل أيضاً: إن المراد بذلك رجلان، أحدهما من اليهود يقال له نافع بن حرملة قال لنصارى نجران: لستم على شيء، وآخر من نصارى نجران قال لليهود: لستم على شيء، فيكون قد نسب ذلك للجميع حيث وقع من بعضهم(١٧٥)، وبذلك لا يختلف الأمر عما قبله، فهو حكاية حال حاضرة، وبهذين التفسيرين المرتبطين بمعطيات المقام الحالية تكون " أل " للعهد(١٧٦) الذهني.

---

١٧١. كتاب الإعراب ص٢٠٥- ٢٢٤، ومن الوجهة الإحصائية في الدراسة الأسلوبية ص١٣٠، والمعنى اللغوي وعناصر تحديده في ضوء الدرس اللغوي الحديث مجلة البلقاء مج١ع٢ ص١٢٧-١٣٥.

١٧٢. سورة البقرة، الآية "١١٣" .

١٧٣. البحر المحيط٥٢٢/١.

١٧٤. المصدر نفسه.

١٧٥. المصدر نفسه.

١٧٦. المصدر نفسه.

وربما اقتضى تعدد المعنى من خلال معطيات السياق اللغوي تعدداً في التحليل النحوي. قال تعالى:[وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الجنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِين.فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عنها فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيه] (١٧٧). يتعدد التحليل النحوي للضمير " ها " في "عنها " بتعدد المعنى الذي يقود إليه السياق اللغوي، فيرى أبو حيان الضمير "ها " في "عنها" يعود على الشجرة، لأنهما أقرب مذكور، والمعنى فحملهما الشيطان على الزلة بسببها، وتكون " عن" للسبب(١٧٨). وقيل: إن الضمير يعود على "الجنة " لأنها أول مذكور(١٧٩). وقيل: عائد على غير مذكور يفهم من المعنى المتحصل من السياق، وهو " الطاعة "، بدليل قوله تعالى: "ولا تقربا"، لأن المعنى: أطيعاني بعدم قربان هذه الشجرة، فعاد الضمير على معنى " الطاعة " المتحصل في السياق(١٨٠). وقيل : يعود على الحالة التي كانوا عليها من الرفاهية والتفكُّه، بدليل قوله تعالى: " وكلا منها رغداً "(١٨١). وهناك أقوال أخرى مرتبطة بمعطيات السياق اللغوي(١٨٢).

وربما كان تعدد المعنى الذي يقود إلى تعدد في التحليل النحوي حصيلة لتفاعل معطيات السياق بنوعيها، معطيات المقام ومعطيات السياق اللغوي. قال تعالى:[فَمَا آمَنَ لِمُوسى إِلاَّ ذُرِّيَّةٌ مِنْ قَوْمِهِ عَلَى خَوْفٍ مِنْ فِرْعَوْنَ وَمَلَئهم أَنْ يَفْتِنَهُمْ] (١٨٣). تحتمل معطيات السياق أن يعود الضمير في " قومه " على موسى عليه السلام، وتذكر عن ابن عباس (ت٦٨هـ) معطيات المقام التي تجعل الضمير عائداً على موسى عليه السلام، وهو أن يعقوب عليه السلام دخل مصر

١٧٧. سورة البقرة، الآية "٣٥-٣٦".
١٧٨. البحر المحيط١/٣١٤.
١٧٩. المصدر نفسه.
١٨٠. المصدر نفسه.
١٨١. المصدر نفسه .
١٨٢. المصدر نفسه.
١٨٣. سورة يونس، الآية "٨٣".

في اثنين وسبعين شخصاً، فتوالدوا في مصر حتى صاروا ستمئة ألف، ويعتبر موسى عليه السلام من هؤلاء القوم، وبذلك يعود الضمير في " قومه " عليه[١٨٤]. ويذكر أبو حيان معطيات السياق اللغوي التي تجعله يعود على موسى عليه السلام، وهو لأنه أقرب مذكور، ولأنه المحدَّث عنه في الآية الكريمة[١٨٥]. وتحتمل معطيات السياق وجهاً آخر يقتضي أن يعود الضمير في " قومه " على "فرعون"، ويذكر بعضهم معطيات المقام التي تدعم هذا الرأي، وهي أنه آمنت زوجة فرعون، وخازنه، وامرأة خازنه وشبابٌ من قومه، مما يدل على ان المراد بالضمير هؤلاء[١٨٦]. وعن ابن عطية (ت٥٤٢هـ) أن معطيات السياق اللغوي التي تؤيد هذا الوجه هي ما تقدم في الآيات السابقة من محاورة موسى عليه السلام لقوم فرعون، ورده عليهم وتوبيخه لهم على قولهم: "هذا سحرٌ" [١٨٧]. وبذلك نرى أن كلاًّ من الوجهين اعتمد معطيات السياق بنوعيه، المقام والسياق اللغوي.

وقد يؤدي النص الأدبي من خلال معطيات سياقه إلى أن يجعل الكلام يحتمل أوجهاً عديدة، والمراد بالنص في هذا البحث النسيج اللغوي المدوّن والمؤلّف من سلسلة من الجمل المترابطة المنظمة التي تشكل وحدات ذات دلالات خاصة بها، تتضافر هذه الوحدات لتشكل كلاماً يؤدي هدفاً ما، وهذا الكلام هو النص[١٨٨].

---

١٨٤. البحر المحيط ٥ /١٨٢.

١٨٥. المصدر نفسه.

١٨٦. المصدر نفسه.

١٨٧. المصدر نفسه.

١٨٨. استخلص هذا المفهوم من مؤلفات عديدة اختلفت في تحديد مفهوم النص، انظر: بحيري، سعيد حسن: علم لغة النص ص٩٩-١١٨، وحنفي، حسن: قراءة النص، مجلة ألف ع٨ص١١-١٢، وخليل، إبراهيم: النص الأدبي تحليله وبناؤه ص٩-١٨، والزناد، الأزهر: نسيج النص ص١١-١٧، ومرتاض، عبد الملك: ثلاثة مفاهيم نقدية بين التراث والحداثة، نظرية، أدب، نص، ضمن

ويطالعنا النص الأدبي من خلال معطيات السياق بغموض شفاف يجعل المعنى في بعض العبارات أحياناً يحتمل أوجهاً عديدة، وقد ينعكس هذا الأمر على التحليل النحوي ليجعل الأوجه متعددة أيضاً. قال تعالى:[وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلاً أَنْ يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمْ الْمُؤْمِنَاتِ] (١٨٩). يحتمل التركيب " طولاً أن ينكح " في ظل السياق معاني عديدة تتجلى في التحليل النحوي، فقد رأى بعضهم أن المعنى: ومن لم يستطيع منكم وصلةً إلى أن ينكح، فقدر " إلى " قبل المصدر المؤول(١٩٠). وهناك من رأى أن " طولاً " بمعنى "مهراً "، أي مهراً كائناً لأن ينكح المحصنات(١٩١)، فقدر لام الجر قبل المصدر المؤول، ليجعله في موضع الصفة لـ " طولاً "(١٩٢) وهناك من رأى أن المصدر المؤول في موضع المفعول لأجله، فقدر لام الجر بناءً على هذا الفهم، والمعنى: طولاً لأجل نكاح المحصنات(١٩٣). وذهب بعضهم إلى أن "طولاً " مصدر " طال "، فيقول": طلتُ الشيء إذا نلته. والمعنى: ومن لم يستطيع منكم أن ينال نكاح المحصنات، وبذلك يكون المصدر المؤول من " أن " وصلتها في موضع المفعول به لـ " طولاً "(١٩٤). وذهب بعضهم إلى أن " طولاً " بمعنى "قدرة"، والنكاح قدرة أيضاً، وبذلك يكون المصدر المؤول في موضع البدل من المفعول به " طولاً "، لأنهما يدلان على شيء واحد، وهو القدرة(١٩٥). وأجاز بعضهم أن يكون المصدر المؤول في موضع المفعول به للفعل "يستطع "، و "طولاً " إما مفعول لأجله على حذف مضاف، أي ومن لم يستطيع منكم نكاح

سلسلة قراءة جديدة لتراثنا النقدي ص٢٦٦-٢٧٥، ونصر، عاطف جودة: النص الشعري ومشكلات التفسير ص١٥-١٦.

١٨٩. سورة النساء، الآية "٢٥".

١٩٠. البحر المحيط١/٢٣٠.

١٩١. المصدر نفسه.

١٩٢. المصدر نفسه.

١٩٣. المصدر نفسه.

١٩٤. المصدر نفسه.

١٩٥. البحر المحيط١/٢٣١.

المحصنات لعدم طول، وإما مفعول مطلق، والعامل فيه الفعل " يستطع "، لأن فيه معنى فعل المصدر " طولاً "[196]. وبذلك يتبين لنا أن هذا الفهم للدلالات الجزئية في الآية الكريمة الذي اقتضاه المستوى الأدبي قاد إلى تعدد في التحليل النحوي.

ولا شك أن النحاة والمفسرين ينطلقون في تحليلهم النص من أمور معقدة، فردية ومكتسبة كالذوق الأدبي والمخزون الثقافي والنحوي، فتؤثر هذه الأمور في التعدد.

إذا كان المتلقي يتميز من سواه بذوقه الأدبي فإن التعدد الذي يسمح به النص الأدبي قد ينبع من هذه الخصوصية التي تتفاوت وتختلف من إنسان إلى آخر. قال تعالى:[مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ][197]. ذهب الزمخشري إلى أن الأبلغ في أسلوب الشرط الذي يبدأ بـ " لما " أن يكون محذوف الجواب لما في ذلك من الوجازة وأداء المراد، و " كأنه قيل: فلما أضاءت ما حوله خمدت فبقوا خابطين في ظلام، متحيرين متحسرين على فوت الضوء، خائبين بعد الكدح في إحياء النار "[198]. وبين الزمخشري موقع جملة " ذهب الله بنورهم " على هذا الوجه، فيرى أنها تحتمل الاستئناف، وكأنهما بمثابة التفسير لمن يسأل ما بالهم قد أشبهت حالهم حال هذا المستوقد؟ كما تحتمل البدل من الجملة المقدرة على سبيل البيان[199]. على حين ذهب أبو حيان إلى أن جملة " ذهب الله بنورهم " هي الجواب، وهو الذي يتبادر إلى الذهن، لأن ذهاب الله بنورهم مترتب على

---

١٩٦. المصدر نفسه.

١٩٧. سورة البقرة، الآية "١٧".

١٩٨. الكشاف ١١٠/١.

١٩٩. المصدر نفسه.

الإضاءة، ورأى أن تقدير الزمخشري ذهاب عما يتبادر إلى الذهن إلى أمرٍ متكلف لا دليل عليه[٢٠٠].

ويتأثر معنى النص بثقافة المفسر، ولا سيما الذي يهتم بقضايا التركيب النحوية، فإن هذه الأخيرة تعد جملة من الأنماط التركيبية التي يحفظها، والتي يستحضرها في أثناء فهم المعنى إذا اقتضى الأمر، بصفتها قواعد يقاس عليها، ومنها المطرد والقليل والنادر والشاذ والذي لا يجوز إلا في ضرورة ونحو ذلك، فإنه عندما يتشكّل في ذهنه معنىً ما ذو مساس بالجانب التركيبي يحاكمه في ضوء معطيات السياق وهذه الأنماط، فيقيس على المطرد من هذه الأنماط ما أمكن، وإذا لم يستطع فإنه يتدرج فيما يحاول القياس عليه، وبذلك بحسب ما يقتضيه المعنى وما تسمح به معطيات السياق، وهذه أمورٌ نسبية تختلف باختلاف الناس، ومن ثم يتأثر التعدد بالتشعب والتفريع والاختلاف والرفض والتضعيف والترجيح والجواز وغيره، من ذلك التعدد الذي حدث في " إذ " من قوله تعالى: [وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الحقَّ بِكَلِمَتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُون. إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَاب لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ. وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلاَّ بُشْرَى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ. إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاس أَمَنَةً مِنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّمَاء مَاءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَى قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدَامَ] [٢٠١]. اختلف المفسرون في معنى "إذ" وتحليلها نحوياً في "إذ يغشيكم "، فعن الطبري(ت٣١٠هـ) أن العامل فيها الفعل " تطمئن " " من " ولتطمئن به قلوبكم "[٢٠٢]. وذكر الزمخشري أنه يجوز فيها أن تكون بدلاً ثانياً من " إذ يعدكم" ، أو منصوبة بـ " النصر " من " وما النصر إلا من عند الله "، أو

٢٠٠. البحر المحيط٢١٣/١.

٢٠١. سورة الأنفال، الآية "٧-١١".

٢٠٢. البحر المحيط٤٦١/٤.

منصوبة بمعنى الفعل الذي تتضمنه شبه الجملة في " من عند الله "، أو بالفعل "جعل" من " ما جعله الله " أو بإضمار" اذكر "[٢٠٣]. ثم يأتي ابن عطية فيما يروى عنه، فيضعف رأي الطبري، ويوافق الزمخشري في جواز البدلية من " إذ يعدكم"[٢٠٤]، ثم يضيف أنه لو جعل العامل في " إذ " شيئاً قرنها بما قبلها لكان الأولى في ذلك أن يعمل في "إذ" حكيم، لأن إلقاء النعاس عليهم وجعله أمنة حكمة من الله عز وجل[٢٠٥]. ويرى أبو البقاء العكبري (ت٦١٦هـ) رأياً قريباً من هذا الذي ذكره ابن عطية، إذ يُروى عنه أنه يجوز أن يكون " إذ " ظرفاً لما دل عليه " عزيز حكيم[٢٠٦]. ثم يأتي أبو حيان فيروي بعض هذه الأوجه من غير موقف، ويقف عند بعضها الآخر مضعفاً بأسس مختلفة تتعلق بالقاعدة وأقوال النحاة أحياناً، وبالمعنى أحياناً أخرى، ثم يرجح وجه البدلية[٢٠٧]، الذي بدأ به الزمخشري. وبذلك يتبين لنا أن النص الأدبي جعل جملة من الاحتمالات تصلح في فهم "إذٍ" وتحليلها نحويّاً، وأن الدارسين اختلفوا وفرعوا في التحليل بحسب تكوين كلّ منهم وثقافته، وما بدا له من معطيات سياقية.

وربما تعدد فهم المعنى الذي ينعكس على التحليل النحوي بوجه آخر يختلف عما مرّ، وهو أن يكون في كلامٍ ما غموض ولا يعرف المراد منه، فيقود هذا إلى تعدّد في الفهم ينبني عليه تعدّد في التحليل النّحوي. وقد يكون هذا الأمر من غير قصدٍ من صاحب الكلام، كما في عبارات النحاة الغامضة، وقد يكون مقصوداً، كما في الحروف المقطعة وبعض الألفاظ الأخرى التي تطالعنا في القرآن الكريم.

---

٢٠٣. الكشاف٢/١٩٢.

٢٠٤. البحر المحيط٤/٤٦١.

٢٠٥. المصدر نفسه.

٢٠٦. البحر المحيط١٤/٤٦١.

٢٠٧. المصدر نفسه.

ولعل أبرز حالات الغموض عند النّحاة تتجلى في كتاب سـيبويه، إذ فيـه نصوص تعاني من غموض في تحديد الحكم النحوي لما تتناول، ومن ثَمَّ يقـود هذا الأمر إلى خلاف بين النحاة في فهم المراد، يتمثل بتعـدد الأوجـه لـبعض القضايا في التحليل، قياساً على تعدد الفهم، من ذلك مثلاً حـديث سـيبويه عـن العامل في البدل، واختلاف النحاة في فهمه، يقول سيبويه: " هذا بابٌ من الفعـل يستعمل في الاسم، ثم يبدل مكان ذلك الاسم اسمٌ آخر فيعمل[٢٠٨] فيه، كما عمل في الأول، وذلك قولك: رأيتُ قومَك أكثرَهم...فهذا يجيء، على وجهـين، علـى أنّه أراد رأيتُ أكثرَ قومك، لكنه ثنّى الاسـم توكيـداً...ويكـون علـى الوجـه الآخر...وهو أن يتكلم، فيقول: رأيت قومك. ثم يبدو له أن يبين مـا الـذي رأى منهم، فيقول: ثلثيهم أو ناساً منهم..."[٢٠٩]. يشير ظاهر كلام سيبويه إلى أنّ العامل في البدل هو العامل في المبدل منه، وذلك بقوله: " فيعمل فيه كما عمل في الأوّل "، ثم يذكر في موطن آخر كلاماً يختلف عما رأينا، عندما يشرح البدل في نحو: رأيت زيداً إياه، فيقول: " واعلم أنّ هذا المضمر يجوز أن يكون بدلاً من المظهر...فأمـا البدل فمنفرد، كأنك قلت: زيداً رأيتُ أو رأيتُ زيداً ثم قلت: إياه رأيـت..."[٢١٠]. ولعلّ ظاهر كلامه ههنا يدلّ على أنّ العامل مقدّر، لذلك نرى النّحاة يختلفون في تحديد العامل في البدل، فقد ذهب أبو حيان إلى أنّ أكثر النحاة فهموا من كـلام سيبويه أنّ العامل في البدل مقدّر، وهو بلفظ الأوّل، وبناء عليه فالبدل من جملـة ثانية[٢١١]، ويضيف أبو حيان مفسّراً قول سيبويه " فيعمل فيـه": فأمـا قولـه: "فيعمل فيه" فحلّ إشكاله أنّه لما كان العامل في البدل مقدّراً غير منطوق، وكـان الظّاهر نائباً منابه في اللفظ نسب العمل إليه مجازاً..."[٢١٢]. وبعد أن يتبنى أبـو

٢٠٨. أي يعمل الفعل فيه.

٢٠٩. كتاب سيبويه١/١٥٠-١٥١.

٢١٠. نفسه ٢/٣٨٦.

٢١١. ارتشاف الضرب٢/٦١٩.

٢١٢. أبو حيان النحوي، أثير الدين محمد بن يوسف: تذكرة النحاة ص١٨٢-١٨٣، وللمزيد من هذه الأمثلة التي توضح العامل وقادت إلى تعدد في التحليل انظر مثلاً في حديث سيبويه عن العامل في شبه الجملة بعد المبتدأ: كتاب سيبويه ١/٤٠٦، ٢/٨٧- ٨٩، وفي فهم النحاة لذلك انظر: ارتشاف

حيان هذا الفهم يذكر أن بعض النحاة فهم من كلام سيبويه أنّ العامل في البدل هو العامل في المبدل منه، وليس على نيّة التكرار(٢١٣)، ويبدو أنهم اعتمدوا ما يدل عليه ظاهر النص الأوّل، من خلال قول سيبويه " فيعمل فيه ...".

ولا يقتصر الغموض في نصوص سيبويه على تحديد العامل، وإنما يتجاوز إلى قضايا الموقع الذي يشغله اللفظ في تركيب ما، فيؤدّي تعدّد الفهم لما يريده سيبويه إلى تعدّد في التحليل النحوي. ويقول سيبويه عندما يتحدّث عن التعليق عن العمل لفظاً:" هذا باب ما لا يعمل فيه ما قبله من الفعل الذي يتعدّى إلى المفعول ولا غيْرِه(٢١٤)، لأنه كلام قد عمل بعضه في بعض، فلا يكون إلاّ مبتدأ لا يعمل فيه شيء قبله، لأنّ ألف الاستفهام تمنعه من ذلك، وهو قولك: قد علمتُ أعبدُ الله ثَمَّ أم زيد؟... وأما ترى أيُّ برقٍ ههنا؟ فهذا في موضع مفعول، كما أنك إذا قلت: عبدُ الله هل رأيته، فهذا الكلام في موضع المبني على المبتدأ الذي عمل فيه فيرفعه. ومثلُ ذلك ليت شعري أعبدُ اللهِ ثَمَّ أم زيد؟ وليت شعري رأيته؟ فهذا في موضع خبر ليت، فإنما أدخلتَ هذه الأشياء على قولك: أزيدٌ ثَمَّ أم عمرو لما احتجت إليه من المعاني"(٢١٥).

يحتمل كلام سيبويه في قوله: " ومثل ذلك ليت شعري أعبدُ اللهِ ثَمَّ أم زيد؟" أن هذا من باب التعليق أيضاً، وبذلك تكون الجملة الاسمية المصدرة بحرف استفهام في موضع مفعولي " شعري "، كما يحتمل قوله: " فهذا في موضع خبر ليت " مثالاً لما يقع موقع الخبر، فتكون شعري بمعنى مشعوري، والجملة الاسمية المصدرة بأداة استفهام في موضع خبر " ليت ". ولعل فهم كلام سيبويه

الضرب٢/٥٥، وكذلك في حديثه عن العامل في " فاه " من كلمته فاه إلى في، انظر: كتاب سيبويه ١/٣٧٠-٣٩٣، وفي فهم النحاة لحديثه، انظر: ارتشاف الضرب٢/٣٣٥.

٢١٣. ارتشاف الضرب٢/٦١٩.

٢١٤. "غيره" بالرفع عطفاً على " ما " من " لا يعمل فيه ما قبله "، والجر عطفاً على " الفعل " من" لا يعمل فيه ما قبله من الفعل" انظر: كتاب سيبويه١/٢٣٥الحاشية رقم (٢).

٢١٥. كتاب سيبويه١/٢٣٥-٢٣٦.

هو الذي دفع النحاة إلى التعدّد في تحليل مثل هذا التركيب، فقالوا: إنّ الجملة المصدرة بأداة استفهام في مثل هذا التركيب يجوز أن تكون في موضع مفعولي " شعري "، وشعري اسم " ليت "، والخبر محذوف، تقديره كون عام، كائن أو موجود، أو أن تكون " ليت " لاخبر لها، لأن المعنى: ليتني أشعر، ويجوز أن يكون " شعري " بمعنى " مشعوري "، والجملة الاسمية المصدّرة بأداة استفهام في موضع خبر ليت(٢١٦).

وقد يظهر الغموض عند سيبويه في اضطراب الدلالة الاصطلاحية التي يبتغيها، فيقود اختلاف فهم النحاة لتلك الدلالة إلى تعدد في التحليل النحوي. يقف سيبويه عند الواو من قوله تعالى:[ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِ الْغَمِّ أَمَنَةً نُعاساً يَغْشَى طَائِفَةً مِنْكُمْ وَطَائِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنْفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ] (٢١٧). يقول سيبويه: " فإنّما وجّهوه على [أنّه] يغشى طائفةٌ منكم وطائفةٌ في هذه الحال، كأنه قال: إذ طائفة في هذه [الحال]، فإنما جعله وقتاً، ولم يرد أن يجعلها واو عطف، وإنما هي واو الابتداء"(٢١٨). لم يوضّح سيبويه معنى الحالية للواو، فجاء تمثيله قلقاً يحتمل غير وجه، فقوله: " وطائفة في هذه الحال " تجعل دلالة الحالية محتملة، وقوله: " كأنه قال إذ طائفةٌ في هذه الحال، فإنما جعله وقتاً " يدل في ظاهره على أنها بمعنى " إذ " الظرفّية الزّمانّية، وقوله: " ولم يرد أن يجعلها واو عطف، وإنّما هي واو الابتداء "، يجعلها تحتمل الاستئناف، لتكون في بداية جملة، لذلك اختلف النحاة في الدلالة الاصطلاحية التي يبتغيها سيبويه لهذه

٢١٦. مغني اللبيب ص٥٠٨، ولعل الأمر لا يختلف في حديث سيبويه عن الحكاية في قولك: أول ما أقول إني أحمد الله، انظر: كتاب سيبويه ١٤٣/٣، والتعدد الذي انبنى عليه، انظر: مغني اللبيب ص٥٤، ٧٨٦، وحديثه عن " فعيل " التي تحتمل الصفة المشبهة واسم الفاعل، انظر: كتاب سيبويه١/١١٤، والخلاف في فهم مراده الذي أدّى إلى التعدّد، انظر: مغني اللبيب ص٥٦٨-٥٦٩.

٢١٧. سورة آل عمران، الآية "١٥٤".

٢١٨. كتاب سيبويه١/٩٠، والمعقوفات من المحقق.

الواو، ومن ثَّم تعددت الأوجه في تحليلها، فعن مكـــي أنّهـــا واو الابتـــداء[٢١٩]، ولعله يريد بها الواو الاستئنافية التي تتصدر كلاماً منقطعاً عمّا قبله. ثم أضـــاف أنه قيل في هذه الواو: إنها للحال، وقيل أيضاً: إنها بمعنى " إذ "[٢٢٠]. ولا يخفى أثر كلام سيبويه في هذه الأوجه، فإنّه يحتملها جمعياً. ويعقب ابـــن هشـــام بـــأن المراد من كلام سيبويه هو أنها واو الحال، وأن تقديرها بـــ "إذ" لا يقصد به أنهـــا بمعناها، فالحرف لا يرادف الاسم، وإنما يراد بهذا التقدير أنها وما بعدها قيد للفعل السابق، كما أنّ " إذ " كذلك، ومن ذهب إلى غير ذلك فإنه وقع فـــي وهـــم [٢٢١]. ونرى أن الأوجه التي تعددت في الواو قاد إليها كلام سيبويه، وما أضـــافه ابـــن هشام يدلّ على عمق نظره، ولكنه لا يلغي تعـــدّد الفهـــم، لاضـــطراب الدلالـــة الاصطلاحية كما تبيّن. ولعل ظاهرة الغموض التي رأيناها في الأمثلـــة الســـالفة لها أمثلة كثيرة في كتاب سيبويه[٢٢٢].

ويواجها الغموض عند سيبويه بمظهر يختلف عما مرّ، فقد يتنـــاول بعـــض القضايا بالشرح والتفسير، فيقع في بعض جمله غموض ما يقود إلى تعـــدد فـــي تفسير كلامه وتحليله نحوياً. يقول سيبويه عندما يفســـر ظـــاهرة التثنيـــة فـــي الأسماء :" واعلم أنّك إذا ثّنيتَ الواحد لحقته زيادتان، الأولى منهما حرفُ المـــدّ واللين، وهو حرف الإعراب غير متحرك ولا منون، يكون في الرفع ألفاً، ولـــم يكن واواً ليفصل بين التثنية والجمع الذي على حدّ التثنية، ويكون في الجرّ يـــاءً مفتوحاً ما قبلها، ولم يكسر ليفصَل بين التثنية والجمع الذي علـــى حـــد التثنيـــة، ويكون في النصب كذلك، ولم يجعلوا النصب ألفاً ليكون مثله في الجمع، وكـــان

---

٢١٩. مغني اللبيب ص٤٧٠-٤٧١.

٢٢٠. المصدر نفسه.

٢٢١. المصدر نفسه.

٢٢٢. انظر فيما قدّمه عبد الكريم جواد كاظم الزّبيدي في مؤلفه:" دراسة نحوية في علاقـــة بعـــض المسائل الخلافية بكتاب سيبويه ".

مع ذا أن يكون تابعاً لما الجرّ منه أولى، لأنّ الجرّ للاسم لا يجاوزه، والرفع قد ينتقل إلى الفعل، فكان هذا أغلب وأقوى "[٢٢٣].

لا يتضح مراد سيبويه في قوله:" ولم يجعلوا النصب ألفاً ليكون مثله في الجمع "، ولعل الإشكال يكمن فيما يعود عليه الضمير من " مثله "، إذ يحتمل أن يكون مراد سيبويه: ولم يجعلوا النصب ألفاً للاسم المثنّى لئلا يكون مثل ذلك في الجمع، لأنّ الواو التي هي علامة الرفع في الجمع ستكون عندئذٍ علامةً للرفع والنصب. أو يكون مراده: ولم يجعلوا علامة النصب ألفاً للاسم المثنّى، وإنما جعلوها ياءً حملاً على الجرّ، لأنّه من خصوصيات الاسم بخلاف الرفع، فلم يحملوها عليه، ليكون مثل حمل النصب على الجر في الجمع. وإذا كان الاحتمال الثاني أقوى فإن هذا لا يلغي تعدد الفهم التحليل النحوي، وهو ما يطالعنا به أبو حيان، إذ يذكر أن التفسير الأوّل يقتضي تقدير " لا " النافية التي حذفها سيبويه، وهو يريد معناها، أمّا التفسير الثاني فلا يقتضي ذلك[٢٢٤]. ثم إن التعدد يحدث أيضاً في عود الضمير من " مثله " كما تبين لنا. إذن وقع التعدد بذلك في تحليل كلام سيبويه، وهو يفسر بعض الظواهر بالتعليل. ويبدو أنّ ظاهرة الغموض في عبارات النحاة بقيت شائعة بعد سيبويه، وهي في طبيعتها لا تخرج عما رأيناه [٢٢٥]، فلا حاجة تدعو لأن نقف عند نماذج مشابهة.

وقد يحدث الغموض في فهم لفظ ما، فيقود ذلك إلى تعدد في معاني اللفظ المحتملة، ثم ينعكس على عمليّة التحليل النحوي، من ذلك مثلاً فواتح السّور، كما في قوله تعالى:[آلم. ذَلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدىً لِلْمُتَّقِين] [٢٢٦]. تعدد

---

٢٢٣. كتاب سيبويه١/١٧.

٢٢٤. تذكرة النحاة ص٣٢١، وللمزيد من الاطلاع على هذا النمط انظر: المصدر نفسه ص ٣٢٠.

٢٢٥. انظر مثلاً: البحر المحيط ١/١٧٧، ٢٤٦، ٤٢٠، ٢/٧، ١٥٤، ٢٣٩، ٢٧١- ٢٧٢، ٢٩٨، ٣٣٤، ٣٨١، ٤٨٥، ٣/١٠٢، ٢١٧، ٢٥٩، ٣٢٠، ٤/٥٥- ٥٦، ٤١٣، ٤٤٠، ٥/٤٧، ٤٤٩، ٧/٢٥، ٨/٣٥، ٢٠٤، ومغني اللبيب ص ٧٤٨.

٢٢٦. سورة البقرة، الآية "١-٢".

تفسير " آلم " فبلغ شأواً بعيداً في الكثرة[٢٢٧]، وانعكس هذا الأمر على التحليل النحوي، فقيل بناء على بعض التفاسير: إن هذه الفواتح أسماء للسور بعدها، وهي بذلك تحتمل أن تكون في موضع رفع، مبتدأ محذوف الخبر، أو خبراً محذوف المبتدأ، وتحتمل أن تكون في موضع نصب، بإضمار فعل، كما تحتمل أن تكون في موضع جرٍّ، على إضمار حرف القسم[٢٢٨]. وقيل بناء على بعض التفاسير: إن هذه الفواتح ليست أسماء للسور التي بعدها، وإنما هي كحروف المعجم، أوردت مفردة من غير عامل، فاقتضت أن تكون مستكنّة، كأسماء الأعداد التي ترد لمجرّد العدد، وبذلك لا محلّ لها من الإعراب[٢٢٩]. وهذا الذي عرضه أبو حيان في تعدد الأوجه لهذه الفواتح نبّه على أنّه مختصر، وأن النحاة توسّعوا وفصلوا، فتكلموا على ما يمكن إعرابه منها، وما لا يمكن، وعلى ما إذا أعرب فمنه ما يمنع من الصرف ومنه ما لا يمنع، وغير ذلك[٢٣٠]. ولا شك أن هذا التعدد في التحليل النحوي، هو حصيلة لغموض اللفظ الذي تعددت تفاسيره.

ولا يقتصر الأمر على فواتح السور، فهناك ألفاظ أخرى تعدد تفسيرها لغموضها، وقاد ذلك إلى تعدد في التحليل النحوي. قال تعالى:[وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يشاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ] [٢٣١]. اختلف في تفسير " ويكأن "، وقاد ذلك إلى تعدد في التحليل النحوي فقد ذهب الخليل إلى أنها كلمتان هما " وي " اسم فعل يراد به التندّم، و " كأن " الداخلة على الجملة الاسمية[٢٣٢]، و" الله " اسم " كأن ". وعن يونس (ت١٨٢هـ) أن الأصل " ويلك "، حذفت اللام، والكاف في موضع جرٍّ بالإضافة، وهي كلمة يراد بها التحزّن، و " أنّ " وصلتها على إسقاط الجار، وهنالك فعل مضمر،

---

٢٢٧. البحر المحيط ١/١٥٦-١٥٧.

٢٢٨. المصدر نفسه ١/١٥٨.

٢٢٩. المصدر نفسه.

٢٣٠. المصدر نفسه.

٢٣١. سورة القصص، الآية "٨٢".

٢٣٢. كتاب سيبويه٢/١٥٤.

والأصل: ويلك أعجبُ لأنّ الله[٢٣٣]، وعن الأخفش (ت٢١٠هـ) أنّ الأصل:"ويك" " أنّ" ، و "ويك " اسم فعل والكاف حرف خطاب، والأصل: ويك أعلم أنّ الله[٢٣٤]. وعن أبي زيد الأنصاري (ت٢١٥هـ) أن "ويكأنّ " كلمة واحدة معناها " ألم ترَ أنّ "[٢٣٥]. وهناك أوجه أخرى فسّرت بها هذه الكلمة[٢٣٦] نكتفي بما عرضنا، ومن ثم نلاحظ أن هذا التعدد نتج بسبب غموض معنى اللفظ.

يتبين لنا مما تقدّم أن معطيات السياق الغائبة والحاضرة وظاهرة الغموض تعد من أهم الأسباب التي تجعل الكلام يحتمل غير معنى، وأن تعدد الفهم الذي يحدث نتيجة لهذه الأسباب يقود إلى تعدد في التحليل النحوي، وذلك لأن العناصر النحوية ما هي إلا معان جزئية، تسهم مع عناصر أخرى في تشكل المعنى الدلالي العام فتؤثر وتتأثر.

رابعاً - الاجتهاد:

مرّت بنا أسباب ثلاثة لظاهرة التعدد، هي الخروج على القاعدة، وطبيعة اللغة، والمعنى. وهناك سبب رابع أغنى الظاهرة هو الاجتهاد، وهذا الاجتهاد قد يولد أوجهاً جديدة في القضايا التي تحتمل التعدد من خلال الأسباب المذكورة، فيغني الظاهرة بما لم يكن من قبل إضافة إلى ما كان سابقاً. وقد يكون ما أُضيف قويّاً، فيلغي ما تقدّم أو يضعّف ويرجّح، أو يكون لا يختلف عما قبله من حيث القوّة والضعف، فيبقي وجهاً من الأوجه التي تحتملها الظّاهرة، أو يكون ضعيفاً نابعاً من اجتهاد قاصر، فيبدو مستغرباً مستهجناً حتى يتلاشى بالنسيان. وقد يولّد الاجتهاد وجهاً فيما لا يحتمل التعدد، فيضيف وجهاً صحيحاً يلغي آخر

---

٢٣٣. البحر المحيط١/١٣٠-١٣١.

٢٣٤. المصدر نفسه.

٢٣٥. المصدر نفسه.

٢٣٦. المصدر نفسه.

خاطئاً تقدّمه، أو يحدث خلاف ذلك، فيكون الاجتهاد قاصراً خاطئاً غايتــه حــبّ الإضافة فيما لا يحتمل التعدد، فيموت الوجه الذي أُضيف مع الأيام، ويبقى مــا تقدّمه.

ويبدو أنّ معظم القضايا التي تحتمل التعدد وتقبل الإضافة بالاجتهــاد هــي تلك التي خرجت على القاعدة، أو التي أدّى إليها التعدد في فهم المعنى، ويلحــظ المتتبع أنه بعدما انتهى جمع المادّة وأسّست الأصول وجرّدت معظم القواعد بــدأ النحاة يعيدون النّظر في قضايا النحو وشواهده، ولا شك أنّ كلاًّ منهم ينطلق في أثناء ذلك من زادٍ معرفي وانتماء مدرسي يختلف عنه عند غيره، إضــافة إلــى حبّ التميّز الذي تغذّيه أمور عديدة، فكان أن وقفوا عند كثيرٍ من الشواهد التــي خرجت على القاعدة وتحتمل التعدد، فولّدوا أوجهاً جديدة تجيز ما ســبقها مــن أوجه أو ترفضه، فتشعب بذلك التعدد في القضية الواحــدة، وكثــرت الأســس المعتمدة، وطال الحوار والجدل بالتعليل والأخذ والرّد وغيره. ومن ذلك مثلاً ما جرى في تحليل " ما " من " بئسما " الذي خرج على قاعدة الإسناد، كما في قولــه تعالى:[بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِه أَنفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بمَا أَنزلَ اللَّهُ بغياً أَنْ يُنزلَ الله مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاُء مِنْ عِبَاده] [٢٣٧]. عن سيبويه أنّها معرفة تامة في موضع رفع فاعل "بئس "، والتأويل: بئس الشيء[٢٣٨]. عن الكسائي أنها معرفة ناقصة موصولة في موضع رفع فاعل، والتأويل: بئس الذي اشتروا به أنفسهم أن يكفروا[٢٣٩]. وعنه أيضاً أنها مصدرية، فتكون وصلتها في موضع رفع[٢٤٠]. وعنه أيضاً أنّ " ما " في موضع نصب علــى التمييــز، وثَــمّ "مــا " أخــرى محذوفــة موصــولة هــي المخصوص بالذم، أي بئس شيئاً الذي اشتروا به أنفسهم، وجملة " اشتروا " صلة لــ " ما " المحذوفة لا موضع لها[٢٤١]، فاعل بئس مضمر تقديره " هو " يفسّــره

---

٢٣٧. سورة البقرة، الآية "٩٠ ".

٢٣٨. البحر المحيط١/٤٧٣.

٢٣٩. المصدر نفسه.

٢٤٠. المصدر نفسه.

٢٤١. المصدر نفسه١/٤٧٢.

ما بعده. ويتشعب التعدد بالاجتهاد، فعن الفرّاء أنّ " ما " مـع " بـئس " ركّبت فصارت كلمة واحدة، وبذلك لا موضع لها مـن الإعـراب[٢٤٢]. ثـم يضـيف الأخفش رأياً جديداً، إذ يروى عنه أنّ " ما " نكرة ناقصة في موضع نصب على التمييز، والجملة بعدها صفة لها، وفاعل " بئس " مضمر مفسّـر بـ " مـا "، والتقدير: بئس هو شيئاً اشتروا به أنفسهم، و " أن يكفـروا " هـو المخصـوص بالذم[٢٤٣]. ثم تُضعَّف بعض الأوجه المذكورة وتولّد أخرى لم تكن من قبل، فقد ذُكر عن ابن عطيّة أنّه ضعّف الوجه المنسوب إلى الكسائي الذي يقول: إن " ما " مصدرية، والتقدير " بئس اشتراؤهم، وذلك لأنّ " بئس " لا تـدخل علـى اسـم معين يتعرف بالإضافة إلى ضمير[٢٤٤]. ثم يضيف أبو حيان أن الكسائي في هذا الوجه قد يريد أن " ما " وصلتها المخصوص بالذم والفاعل مضـمر، أي بـئس اشتراءٌ اشتراؤهم، ولكنه إذا قصد ذلك فلا يجوز أيضاً، لأنّ الضمير في " بـه " سيعود على " ما "، و" ما " المصدرية لا يعود عليها ضمير، لأنها حرف علـى مذهب الجمهور[٢٤٥]، ومن ثم يرفض هذا الوجه. ويضيف أبو حيـان بحسـب الوجه الذي قاله الأخفش، أنه يجوز فـي جملـة "اشـتروا" أن تكـون صـفة للمخصوص بالذّم المحذوف، والتقدير: بئس شيئاً شيءٌ اشتروا به أنفسـهم[٢٤٦]. وهكذا يحدث التوليد في المسألة التي خرجت على القاعدة، وتحتمل التعدّد.

وإذا كان الدارس يولّد ويشقق في مسائل وشواهده منطلقاً من ثقافته النحوية فإن الأمر مختلف في تناول العناصر التركيبية التي تؤثر في تحليلهـا معطيـات السياق، من خلال فهم المعنى وانعكاسه على التحليل النحوي، لأن عملية التحليل عند كلّ نحوي تكون حصيلةً لتفاعل عنصرين، الرصيد النحوي، وفهم المعنـى الذي تشير إليه معطيات السياق، وهذا التفاعل نسبيٌّ يختلف من إنسان إلى آخر،

٢٤٢. المصدر نفسه.
٢٤٣. المصدر نفسه.
٢٤٤. المصدر نفسه.
٢٤٥. المصدر نفسه١/٤٧٣.
٢٤٦. المصدر نفسه١/٤٧٢.

وبذلك، تتكاثر الأوجه في المسألة الواحدة مع الزمن حتى تبلغ شأواً بعيداً. مـن ذلك مثلاً ما قيل في تحليل الكاف في " كما " في قوله تعـالى:[الَّـذِينَ يُقِيمُـونَ الصَّلاَةَ ومِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْـدَ رَبِّهِـمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ. كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ. يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَـاقُونَ إِلَـى الْمَـوْتِ وَهُـمْ يَنظُرُونَ] (٢٤٧). اختُلف في فهم معنى الكاف وتحليلها نحوياً، فعن الكسـائي أنّ التأويل: " كما أخرجك ربُّك من بيتك على كراهة من فريقٍ منهم كذلك يجادلونك في قتال كفّار مكّة "(٢٤٨)، وبذلك تكون الكاف في موضع رفـع، مبتـدأ، علـى تقدير كاف أخرى في موضع الخبر، أو يكون الكسـائي أراد بتمثيـل العبـارة وتقدير " كذلك " تفسير المعنى وتوضيحه، فيريد أنها في موضع نصـب صـفة لمصدر مقدَّر. وعن الفرّاء أن ما تقدم في الآية الأولى يقتضي أن يكون أصـل العبارة: امضِ لأمرك في الغنائم، ونفِّل من شئت وإن كرهوا كما أخرجك...،(٢٤٩) وبذلك تكون الكاف في موضع نصب، حالاً. ثم يعقب ابن عطيّة فيما يروى عنه على هذين الرأيين بكلام يستحسنهما(٢٥٠). وعن أبي عبيدة أن الكاف بمعنى واو القسم، و "ما " بمعنى الذي، والمراد بها لفظ الجلالة، فتكون فـي موضـع جـرّ بالكاف، وجواب القسم جملة " يجادلونك "، والتقدير: والله الذي أخرجك من بيتك يجادلونك في الحقّ(٢٥١). غير أن بعض النحاة استهجن هذا الرأي، لأن الكـاف لا تأتي للقسم(٢٥٢). ويعلّق أبو حيان بأنّ أبا عبيدة ضعيفٌ في النحو(٢٥٣). وعن الأخفش أن الكاف صفة لـ " حقّاً "، والتأويل: هم المؤمنون حقّاً كمـا أخرجـك

---

٢٤٧. سورة الأنفال، الآية "٣-٦".

٢٤٨. البحر المحيط٤/٤٥٦.

٢٤٩. المصدر نفسه.

٢٥٠. المصدر نفسه.

٢٥١. المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

٢٥٢. المصدر نفسه.

٢٥٣. المصدر نفسه.

ربُّك[٢٥٤]. ويروى عن ابن عطيّة أنه لا تناسق في هـذا التحليـل[٢٥٥]. وعـن الزّجّاج أنّ الكاف صفة لمصدر مقدّر، والأصل: الأنفـال ثابتـةٌ لله ثباتـاً كمـا أخرجك ربُّك[٢٥٦]. وذهب الزمخشري إلى قريبٍ من ذلـك، فـرأى أن الكـاف صفة مصدر لفعل مقدّر في قوله تعالى: " الأنفـال لله والرسـول "، والتأويـل: "الأنفال استقرّت لله والرسول وثبتت مع كراهتهم ثباتاً مثل ثبات إخـراج ربـك إياك من بيتك وهم كارهون "[٢٥٧]، ورأى الزمخشري أيضاً أنه يجوز أن تكون الكاف في موضع رفع، خبراً لمبتدأ محذوف، والتقـدير: هـذه الحـالُ كحـالِ إخراجك، أي أن حالهم في كراهة ما رأيت من تنفيل القراءة مثـل حـالهم فـي كراهة خروجهم للحرب[٢٥٨]. وهناك من رأى أن الكـاف بمعنـى "إذ" و "مـا" زائدة، والتقدير: اذكر إذ أخرجك ربُّك[٢٥٩]. ويضعف هذا أبو حيان، فيرى أنه لم يثبت أن الكاف تكون بمعنى " إذ " في لسان العرب، ولم يثبت زيادتها ههنـا[٢٦٠]. وهناك من ذهب إلى أن الكاف بمعنى " على " و " ما " موصولة بمعنى الـذي، والتأويل: امضِ على الذي أخرجك ربّك من بيتك[٢٦١]. ويضـعفه أبـو حيـان بالاستخدام والقاعدة، فيرى أنه لم يثبت مجيء الكاف بمعنى " على "، ولا يجوز حذف العائد على الموصول في مثل هذا التركيب[٢٦٢]. وبعضهم يرى أن أصل الكلام، وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين، كما أخرجكم في الطاعة خيرٌ لكم، كما كان إخراجك خيراً لهم[٢٦٣]. ولعل الكاف في هذا التأويل تكون في موضـع

---

٢٥٤. البحر المحيط٤/٤٥٦.

٢٥٥. المصدر نفسه.

٢٥٦. المصدر نفسه.

٢٥٧. الكشاف٢/١٨٧.

٢٥٨. المصدر نفسه٢/١٨٦-١٨٧.

٢٥٩. البحر المحيط٤/٤٥٦.

٢٦٠. المصدر نفسه.

٢٦١. المصدر نفسه.

٢٦٢. المصدر نفسه.

٢٦٣. المصدر نفسه.

المبتدأ، والخبر محذوف. وهناك من رأى أن أصل الكلام: كما أخرجــك ربُّــك فاتقوا الله[٢٦٤]، وكأنه جعل الكاف في موضع المبتدأ، خبــره جملــة " اتقــوا " المقترنة بالفاء[٢٦٥]. ويضعفه ابن عطية فيما يروى عنه لانعدام الدليل الســياقي الذي يسمح بهذا الفهم[٢٦٦]. وبعضهم رأى أن الكاف في موضــع رفــع صــفة لمحذوف، وأصل الكلام: لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم هذا وعــدٌ حقٌ كما أخرجك[٢٦٧].

ويرى أبو حيان أن هذا الوجه ضعيف، لأن المقدر لو صُرّح به لــم يلتــئم التشبيه ولم يحسن[٢٦٨]. وهناك أيضاً من رأى أن الكاف في موضع رفع، صفة لخبر مقدّر، والمعنى: وأصلحوا ذات بيــنكم ذلكــم خيــرٌ لكــم كمــا أخرجــك ربُّك [٢٦٩]. ولم يرق لأبي حيان هذا الوجه لكثرة التقدير، وطول الفصــل بــين "أصلحوا" وبين " كما أخرجك "[٢٧٠]. وبعضهم رأى أن المعنى يقتضي أن تكون الكاف في موضع رفع، صفة لخبرٍ مقدّر، على أن التأويل: قسمتك للغنائم حــقٌ كما كان خروجك حقاً[٢٧١]. ويرى بعضهم أنّ المعنــى يقتضــي التشــبيه بــين إخراجين، أي إخراج ربك إياك من بيتك، وهو مكّة، وأنــت كــاره لخروجــك، وكانت عاقبته الخير والنصر كإخراج ربك إياك من المدينة، وبعض المــؤمنين كاره يكون عقب ذلك الظفر والنصر[٢٧٢]. وبذلك تكون الكــاف فــي موضــع الرفع، خبراً لمبتدأ محذوف. وذهب بعضهم إلى أنّ الكاف للتشبيه علــى ســبيل

---

٢٦٤. المصدر نفسه.

٢٦٥. المصدر نفسه.

٢٦٦. المصدر نفسه.

٢٦٧. المصدر نفسه٤/٤٥٧.

٢٦٨. البحر المحيط٤/٤٥٧.

٢٦٩. المصدر نفسه.

٢٧٠. المصدر نفسه.

٢٧١. المصدر نفسه.

٢٧٢. المصدر نفسه.

المجاز، كقول القائل لعبده: كما وجهتك إلى أعدائي فاستضعفوك، وسألت مدداً، فأمددتك وقويتك وأزحت عللهم فخذهم الآن، فعاقبهم بكذا[٢٧٣]. ثم يخلص صاحب هذا الرأي إلى أنّ الكاف متعلقة بـ " اضربوا " التي تقدم ذكرها[٢٧٤]، ويضعفه أبو حيان لطول الفصل[٢٧٥]، ثم يضيف مضعفاً ما سبق في أوجه وذاهباً مذهباً جديداً: ومن دفع إلى حوك الكلام وتقلب في إنشاء أفانينه، وزاول الفصاحة والبلاغة لم يستحسن شيئاً من هذه الأقوال، وإن كان بعض قائلها له إمامة في علم النحو ورسوخ قدم، لكنه لم يحتط بلفظ الكلام ولم يكن في طبعه صوغه أحسن صوغ، ولا التصرف في النظر فيه من حيث الفصاحة، وبه يظهر الإعجاز. وقبل تسطير هذه الأقوال هنا وقعت على جملة منها، فلم يرق لخاطري منها شيء، فرأيت في النوم أنني أمشي في رصيف، ومعي رجلٌ أباحثه في قوله تعالى:"كما أخرجك ربك من بيتك بالحق"، فقلت له: ما مرّ بي شيء مشكل مثل هذا، ولعل ثم محذوفاً يصح به المعنى، وما وقفت فيه لأحد من المفسرين على شيء طائل، ثم قلت له: ظهر لي الساعة تخرجه، وأنّ ذلك المحذوف هو " نصرك ". واستحسنت أنا وذلك الرجل هذا التخريج، ثم انتبهت من النوم، وأنا أذكره، والتقدير، فكأنه قيل :" كما أخرجك ربك من بيتك بالحق " أي بسبب إظهار دين الله، وإعزاز شريعته، وقد كرهوا خروجك تهيباً للقتال وخوفاً من الموت، إذ كان أمر النبي صلى الله عليه وسلم لخروجهم بغتةً، ولم يكونوا مستعدين للخروج، وجادلوك في الحقّ بعد وضوحه نصرك الله وأمدك بملائكته. ودل على هذا المحذوف الكلام الذي بعده، وهو قوله تعالى: [إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُم أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنْ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ] [٢٧٦]. ويظهر أنّ الكاف في هذا التخرج المنامي ليست لمحصن التشبيه، بل فيها معنى التعليل، وقد نص النحويون على أنه قد يحدث فيها معنى التعليل...ومن الكلام الشائع على هذا المعنى: كما تطيع الله يدخلك الجنة، أي لأجل طاعتك الله يدخلك

٢٧٣. المصدر نفسه.

٢٧٤. المصدر نفسه.

٢٧٥. المصدر نفسه.

٢٧٦. سورة الأنفال، الآية "٩".

الجنة، فكأن المعنى: إن خرجت لإعزاز دين الله، وقتل أعدائـــه، نصـــرك الله، وأمدّك بالملائكة..."[٢٧٧] ونلاحظ أنّ ما ذهب إليه أبو حيان ليس بأقوى من كثيرٍ مما تقدم، لأن معطيات السياق المعتمدة، وكثرة التقدير، وكيفية التركيـــب الـــذي يقود إليه هذا الفهم تجعله ليس بأقوى من كثير مما تقدم. وبذلك يبدو أن الاجتهاد في مثل ذلك يغني ما يحتمل التعدد بأوجه كثيرة، تفوق ما يحدث فيمـــا يخـــرج على القاعدة، لأن معطيات التحليل التي ينطلق منها النحوي أوسع، فهي حصيلة لثقافته النحوية وفهمه للمعنى، ولعل ما تقدم في تحليل " كما " خير دليـــل علـــى ذلك.

وقد يتناول الاجتهاد بعض المسائل التي تحتمل التعدد، فيصحّح وجهاً خاطئاً تقدمه، أو يكون ما تقدمه صحيحاً ثابتاً، ولكن حبّ الإضافة يقود إلى وجهة نظر جديدة لم تكن من قبل، فيبقى بذلك الرأي المتقدم ويندثر الاجتهاد، لأن الظـــاهرة لا تحتمل التعدد. ومن النوع الأول تحليل جملة " يهديني " من قوله تعالى:[وَقَالَ إِنِّي ذَاهِبٌ إِلَى رَبِّي سَيَهْدِينِ] [٢٧٨]. ذهب بعضهم إلى أن جملة " يهـــديني " فـــي موضع نصب، حال من الضمير المستتر في " ذاهب "، كمـــا تقـــول: ســـأذهب مهدياً[٢٧٩]. غير أنه تحليل خاطئ لوجود قرينه تمنع ذلك، وهـــي الســـين التـــي تقتضي الاستئناف، لذلك يصحّحه ابن هشام، ويجعـــل الجملـــة اســـتئنافية، لأنّ الجملة الحالية لا تصدَّر بدليل استقبال[٢٨٠].

أما النوع الثاني من الاجتهاد فيما لا يحتمل التعدد فخير مثال عليه ما قالـــه أبو البقاء العكبري في " أيّ " الاستفهام من قوله تعالى: [وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُـــوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنْقَلِبُونَ] [٢٨١] فـــ " أي " في الآية الكريمة اسم استفهام فـــي موضـــع المفعول المطلق المقدّم على فعله " ينقلب "، وقُدّم، لأنه اسم استفهام، والاســـتفهام

٢٧٧. البحر المحيط٤/٤٥٧-٤٥٨.

٢٧٨. سورة الصافات، الآية "٩٩".

٢٧٩. مغني اللبيب ص٥٦٤.

٢٨٠. مغني اللبيب ص٥٦٤.

٢٨١. سورة الشعراء، الآية "٢٢٧".

له الصّدارة. غير أن أبا البقاء لم يرَ ذلك، إذ يروى عنه أنّ "أيَّ : اسم استفهام، وهي صفة لمصدر مقدّر، أي ينقلبون انقلاباً أيّ منقلب[٢٨٢]. وما ذهب إليه غير صحيح لأن " أيَّ " إذا كانت استفهامية لا يوصف بها، فتلك التي يوصف بها قسمٌ برأسه، تختلف من حيث الموقع والوظيفة عن الاستفهامية والشرطية والموصولة[٢٨٣]. ومن ثم يندثر هذا الاجتهاد وأمثاله، ويبقى الرأي الأوّل الذي يقال فيما لا يحتمل التعدد.

وبذلك نلاحظ أن الاجتهاد النحوي يكون سبباً رابعاً من أسباب التعدد، فيولّد أوجهاً فيما يحتمل تغني الظاهرة بالتشعب والتفريع، ويولد أخرى فيما لا يحتمل يصحح من خلالها خطأ سبقه، وحين يكون خاطئاً يهمل وينسى.

ونخلص مما تقدم إلى أن الأسباب التي أدت إلى التعدّد تتمثل بالخروج على القاعدة، وبطبيعة اللغة، وبالمعنى، وبالاجتهاد.

وفي أثناء الوقوف عند القاعدة وما خرج عليها تبين لنا مفهوم القاعدة، وأنواعها المتفق عليه المبني على المطرد والمختلف فيه المبني على ما لم يطرد، وأن الشواهد التي خرجت على القاعدة بعضها مطرد، وبعضها الآخر غير مطرد، ويتمثل بأساليب وردت عن العرب، أو عن بعضهم، أو في القرآن الكريم وقراءاته، أو الشعر والأمثال، وأن هذه التي لم تطرد، قد يتشعب التعدد فيها، بسبب كثرة من يحللها، وتنوع القواعد التي يمكن توجيه مثل هذه الشواهد في ضوئها، وبالتأويل أو من دونه.

أما ما تمثله طبيعة اللغة فقد توصلنا إلى أنه الذي يخفي غموضاً أو قلقاً في بعض المسائل، فيقبل التعدد من غير أن يخرج على القاعدة، أو أن تؤثر فيه المعطيات السياقية.ويظهر بتجليات مختلفة، من أهمها: صلاحية الموقع الذي يشغله اللفظ لغير وجه، وتعدد معاني المبنى، أو يعود إلى قضايا تتعلق بجمع اللغة، أو يكون حصيلةً لغموض جزئي في معاني بعض العناصر، أو لصلاحية

---

٢٨٢. البحر المحيط٧/٤٧.

٢٨٣. المصدر نفسه.

شبه الجملة للتعليق بغير عنصر، أو لتعدد المعنى المعجمي، أو لصلاحية اللفظ للإفراد والتركيب، أو لعدم معرفة أصل اللفظ.

وعندما وقفنا عند قضايا المعنى التي تقود إلى التعدد تبين لنا أن هذا التعدد قد نجده عند المفسر الواحد، فيكون نتيجة لمعطيات سياقية، ربما كانت غائبة أحياناً، كبعض عناصر المقام، أو الأداء، وربما كانت حاضرة، وهي جملة المعطيات السياقية التي تقود إلى تشكل المعنى.

كذلك تبين أنه قد يكون نتيجة لاختلاف الفهم بين الناس، إذ إن المعنى يتأثر بطبيعة المتلقي أحياناً، ولا سيما في النصوص الأدبية، ومن ثم يقود هذا الاختلاف في فهم المعنى إلى اختلاف في التحليل النحوي، يتمثل بتعدد الأوجه، وهو نتيجة لتفاعل طبيعة المتلقي مع المعطيات السياقية، كما لاحظنا أن التعدد الذي يؤدي إليه المعنى قد يكون نتيجة لغموض المراد، وعدم معرفة المعنى المحدد منه الذي لم يوضحه صاحبه، لغاية غير مقصودة، كما في النصوص العلمية التي نجدها عند النحاة، أو لغاية مقصودة كما في الحروف المقطعة أو بعض الألفاظ الأخرى التي نجدها في القرآن الكريم.

ولعل الأمثلة التي وقفنا عندها في أثناء الحديث عن الاجتهاد تبين بوضوح كيف يولد مع مرور الأيام أوجهاً لم تكن من قبل، سواء أكانت هذه الأوجه ضعيفة أم قوية، صحيحة أم خاطئة، حتى إننا نجد في الظاهرة الواحدة ما يقارب العشرين وجهاً.

المصادر والمراجع*

* . لا يعتد بكلمة " ابن " أو " أبو "، وترتيب أسماء الأعلام القدماء بحسب ما اشتهروا به من ألقاب أو كنى، أما المحدثون فيرتبون بحسب الكنى.

- **أحمد**، نوزاد حسن: **المنهج الوصفي في كتاب سيبويه**، منشورات جامعة قاريونس، بنغازي ليبيا، ط(١)١٩٩٦م.

- **الأخفش الأوسط**، سعيد بن مسعدة: **معاني القرآن**، تحقيق فائز فارس، الصفاة الكويت، ط(٢)١٩٨١م.

- **الأشموني**، على بن محمد: **منار الهدى في بيان الوقف والابتداء**، مصطفى البابي الحلبي بمصر، ط(٢)١٣٩٣هـ/١٩٧٣.

- **ابن الأنباري**، كمال الدين أبو البركات: **الإنصاف في مسائل الخلاف بين النحويين البصريين والكوفيين**، ومعه كتاب الانتصاف من الإنصاف لمحمد محيي الدين عبد الحميد، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية بحمص، مطابع الروضة النموذجية ١٩٨٨-١٩٨٩م "تصوير".

- **أنيس**، إبراهيم: **في اللهجات العربية**، دار الفكر العربي بالقاهرة،د.ت.

- **بحيري**،سعيد حسن: **علم لغة النص**، الشركة المصرية العالمية للنشر بالقاهرة، ط(١) ١٩٩٧م.

- **ابن الجزري**، أبو الخير محمد: **النشر في القراءات العشر**، المكتبة التجارية الكبرى بالقاهرة، د.ت.

- **جطل**، مصطفى: **نظام الجملة عند اللغويين العرب في القرنين الثاني والثالث للهجرة**، مديرية الكتب والمطبوعات الجامعية بجامعة حلب، ١٩٨١-١٩٨٢م.

- **الجنابي**، أحمد نصيف: **نظرية النظم النحوي**، مجلة كلية الشريعة واللغة العربية بأبها، ع ١رجب١٣٩٨-١٣٩٩هـ.

- **ابن جنّي**، أبو الفتح عثمان: **المحتسب في تبيين وجوه شواذ القراءات والإيضاح عنها**، تحقيق علي النجدي ناصف وعبد الحليم النجار وعبد الفتاح شلبي، وزارة الأوقاف بمصر، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، لجنة إحياء كتب السنة، ١٤١٥هـ ١٩٩٤م.

- **حاطوم**، أحمد: **كتاب الإعراب " محاولة جديدة لاكتناه الظاهرة "**، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ببيروت، ط(٢)١٤١٢هـ/١٩٩٢.

- **حسّان**، تمام:

اللغة العربية معناها ومبناها، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٣م.

مناهج البحث في اللغة، دار الثقافة، ١٩٧٤م.

- **حسن**، عباس: **اللغة والنحو بين القديم والحديث**، دار المعارف بمصر، ط(٢)د.ت.

- **الحموز**، عبد الفتاح: **مواضع اللبس في العربية وأمن لبسها**، مجلة جامعة مؤتة للبحوث والدراسات، مج ٢ ع١الأردن، حزيران١٩٨٧م.

- **حنفي**، حسن: **قراءة النص**، مجلة ألف، ع٨ منشورات الجامعة الأمريكية بالقاهرة،١٩٨٨م.

- **أبو حيّان النحوي**، أثير الدين محمد بن يوسف:

ارتشاف الضرّب من لسان العرب، تحقيق وتعليق مصطفى أحمد النمّاس، حقوق الطبع محفوظة للمحقق، د.ن، ط (١)١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

تفسير البحر المحيط، دراسة وتحقيق وتعليق عادل أحمد عبد الموجود وعلي محمد معوض وآخرين، دار الكتب العلمية بيروت، ط(١) ١٤١٣هـ/١٩٩٣م-١٤١٦هـ/١٩٩٥.

تذكرة النحاة، تحقيق عفيف عبد الرحمن، مؤسسة الرسالة بيروت، ط(١)١٤٠٦هـ/١٩٨٦م.

منهج السالك في ألفية ابن مالك، تحقيق سيدني جلاسر، نيوهافن كونيكتيكت، الولايات المتحدة الأمريكية، ١٩٤٧م.

- **خليل**، إبراهيم: **النص الأدبي تحليله وبناؤه**، دار الكرمل بعمان، ط(١)١٩٩٥م.

- **دى سوسِّر**، فردينان: **محاضرات في الألسنية العامة**، ترجمة يوسف غازي ومجيد النصر، دار نعمان للثقافة بجونيه لبنان، ١٩٨٤.

- **الزبيدي**، عبد الكريم جواد كاظم: **دراسة نحوية في علاقة بعض المسائل الخلافية بكتاب سيبويه**، دار البيان العربي بجدة، ط(١)١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

- **الزمخشري**، جار الله محمود بن عمر:

الفائق في غريب الحديث، تحقيق علي محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة، ط(١)١٣٦٤هـ/١٩٤٥م.

الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، تحقيق عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي ببيروت، ط(١) ١٤١٧هـ/١٩٩٧م.

الزناد، الأزهر: **نسيج النص" بحث فيما يكون به الملفوظ نصّاً"** ، المركز الثقافي العربي ببيروت، ط(١)١٩٩٣م.

- **سيبويه**،أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر: **كتاب سيبويه**، تحقيق عبد السلام هارون، دار القلم بالقاهرة،١٩٦٦م.

- **السيوطي**، جلال الدين: **الإتقان في علوم القرآن**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، الهيئة المصرية العامة،١٩٧٤م.

- **عبد الغني**، أحمد عبد العظيم: **القاعدة النحوية" دراسة نقدية تحليلية**"، دار الثقافة بالقاهرة،١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

- **عبد اللطيف**، محمد حماسة:

الجملة في الشعر العربي، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ط(١) ١٤١٠هـ/١٩٩٠م.

النحو والدلالة " مدخل لدراسة المعنى النحوي الدلالي "، القاهرة، د.ن ط(١) ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م.

-**عبده**، داود: **التقدير وظاهر اللفظ**، مجلة الفكر العربي،ع٨-٩، معهد الإنماء العربي ببيروت،١٩٧٨-١٩٧٩م.

- **العلولا**، منيرة بنت سليمان: **الإعراب وأثره في ضبط المعنى**، دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية،١٩٩٣.

- **عمايرة**، خليل أحمد: **في نحو اللغة وتراكيبها "مهج وتطبيق**"، عالم المعرفة بجدة، ط(١)١٤٠٤هـ/١٩٨٤م.

- **عمر**، أحمد خطاب: القراءات والوقف والابتداء، مجلة المجمع العلمي العراقي ج١ مج١٤٠٨،٣٩هـ/١٩٨٨م.

- **عمر ان أبي ربيعة المخزومي: ديوان عمر بن أبي ربيعة**، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة السعادة بمصر، ط(١) ١٣٧١هـ/١٩٥٢م.

- **عيسى**، فارس: **المعنى اللغوي وعناصر تحديده في ضوء الدرس اللغوي الحديث**، مجلة البلقاء للبحوث والدراسات، جامعة عمان الأهلية، مج١ع٢،١٤١٢هت/١٩٩٢م.

- **الفراء**، أبو زكريا يحيى بن زياد: **معاني القرآن**، حقق الجزء الأول والثاني أحمد يوسق نجاتي ومحمد علي النجار، دار الكتب المصرية بالقاهرة١٩٥٥م، وحقق الجزء الثالث عبد الفتاح شلبي وراجعه علي النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة، ١٩٧٢م.

- **فضل**، صلاح: **من الوجهة الإحصائية في الدارسة الأسلوبية**، مجلة فصول مج٤ع١، الهيئة المصرية العامة ١٩٨٣م.

- **فلفل**، محمد عبدو: **ما لم يطرد في قواعد النحو والصرف عند أعلام النحاة حتى القرن السابع الهجري**، رسالة دكتوراه " مخطوط " بإشراف عبد الحفيظ السطلي في قسم اللغة العربية من كلية الآداب بجامعة دمشق.

- **المبرد**، أبو العباس محمد بن يزيد: **المقتضَب**، تحقيق محمد عبد الخالق عضيمة، عالم الكتب ببيروت، د.ت.

- **مرتاض**، عبد الملك: **ثلاثة مفاهيم نقدية بين التراث والحداثة" نظرية، أدب، نص**"، ضمن: قراءة جديدة لتراثنا النقدي، النادي الأدبي الثقافي بجدّة، الكتاب٥٩، مج١٢،١/٧/١٩٩٠/،١٤١٠هـ.

- **مصطفى**، إبراهيم: **إحياء النحو**، لجنة التأليف والترجمة والنشر بالقاهرة،١٩٣٧م.

- **مفتي**، خديجة أحمد: **نحو القراء الكوفيين**، مكتبة الفيصليّة بمكة المكرمة، توزيع دار الندوة الجديدة ببيروت، ط(١)١٤٠٦هـ/١٩٨٥م.

- **مكرم،** عبد العال سالم وعمر، أحمد مختار:**معجم القراءات القرآنيـــة،** جامعة الكويت ط (١)١٤٠٢هـ/١٩٨٢م.

- **الميداني،** أبو الفضل أحمد: **مجمع الأمثال،** تحقيق محمد أبو الفضـــل إبراهيم، دار الجيل ببيروت، ط(٣) ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م.

- **نصر،** عاطف جودة: **النص الشعري ومشـــكلات التفســـير،** الشـــركة المصرية العالمية للنشر بالقاهرة، ط(١)١٩٩٦م.

- **نهر،** هادي: **علم اللغة الاجتمـــاعي عنـــد العـــرب،** دار الغصـــون ببيروت،ط(١) ١٤٠٨هـ/١٩٨٨م.

- **ابن هشام الأنصاري،** جمال الدين:

  - **شرح شذور الذهب في معرفة كلام العرب،** ومعـــه كتـــاب منتهـــى الأرب بتحقيق شرح شذور الذهب لمحمد محيي الدين عبد الحميـــد، منشورات جامعة حلب " تصوير ".

  - **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب،** تحقيق مازن المبـــارك ومحمـــد علي حمد الله، منشورات جامعة حلب " تصوير ".

- **ياقوت،** أحمد سليمان: **ظاهرة الإعراب في النحو العربي وتطبيقهـــا فـــي القرآن الكريم،** دار المعرفة الجامعية بالإسكندرية،١٩٩٤م.